
رواية
أمنية
فوق الجسر
خيرة بوخاري
خيال

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر–
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك: 978–9931–06–081–9
الإيداع القانوني: السداسي الأول 2020.

خيرة بوخاري

أمنية فوق الجسر

رواية

إهداء

إلَى القَارِئِ الذي يُمَاثلِني في حَمْلِ أمنيَّتِهِ باليمين...

إلَى الذِينَ عَبَرُوا قُلُوبَنَا وَزَرَعُوا مَحَبَّتَهُم، كُلَّمَا اشْتَقْنَا لَهُم اسْتَنْشَقْنَا عِطْرَهُم...

كُلُنَّا عَابِرُو سَبيل، فلنَعبُر قُلوبَ قُرائِنا لهذهِ الرِّوَايَة بِجِبْرِ الامتِنَانِ وعطرِ المودَّةِ على أمَلِ أنْ نَلتَقِي على جِسْـــــــرِ التَّواصُلِ والعطاءِ...

أُمْنِيَاتُنَا هِيَ رُسُلُ قُدْراتِنَا الكَامِنة

غوته

مَنْ يَحملُ قِنْدِيلهُ في صَدْرِهِ لا يعنِيهِ ظلاَمُ العالمِينَ

جلال الدّين الرّومي

الجزءُ الأوَّلُ:
جسرُ الأمنيَّات

أمنياتٌ تتطايرُ هُنَا وهُناك

أحداثُ هذِهِ الرّواية مُستوحَاة من حيَاةٍ نحيَاهَا بِأحلاَمِنَا ونعيشُهَا بآمَالِنَا وآلامِنَا... نحلمُ فيهَا بتَحقِيقِ أُمنياتِنَا التي تتطايَرُ فوقَ السَّحابِ كُلَّمَا هبَّ نَسِيمُ الفجرِ، ففِي صَدْرِي تَختبِئُ الكثير من الأمنيَاتِ البيضَاء، أتفقَّدُهَا كُلَّ مساءٍ خَوفًا من أن تفترَ وتذبُلَ جَذْوَتَهَا، فالكثير منَ الأمنياتِ لاَ تصطدِمُ بالوَاقعِ، بل بالأشخَاصِ الّذينَ يَقِفُونَ أمامنَا، أمام المرآة التي نودُّ أن نُبصر أنفسنا من خلالِها، فلاَ نحنُ نُبصرُ ما أمامنَا ولا هُم أبصرُوا النُّورَ المنبعثَ من رسالتِنَا...

لكن؛ عندي فكرة جنونيَّة، سنَجعلُ من وُقوفِهِم ظلاًّ ونجعلُ من نور يقيننا بتحقيقِ أمنياتنا الكامنة يخترِقُ ظِلَّهُم، فلستُ الوحيد من يسأل نَفسهُ بل أنتم أيضًا، فلنتساءل مع بعضِنَا ونحنُ نعبُرُ هذا الجِسر، قد يُرافقُنَا واحد، مِئَة، أَلْف، العَالَمَ كُلّهُ لا يهمُّ، المهمُّ أنَّنا نُؤمن بِرسالتِنَا، فإذا آمنَا بِها رضخ لنَا العالم كلّهُ، هيَا فلنتسَاءَل:

-كَم أمنيَّة تنتظرُنَا لتَحقيقِهَا؟

-كم أمنيَّة حقَّقنَا في حياتِنَا؟

رُبَّما واحدَة، اثنَان، ثَلاثَة..... ولا واحدة، كُلّهَا...

قَدْ تتحقَّقُ الأمنيّةُ بِقلمٍ يكتبُ مشاعرًا فتُصبح شعور العالمِ كلّه كأنَّه قلبٌ واحدٌ، أو ريشة ترسمُ قدرًا بألوانٍ نورانيَّة تسطعُ على كلِّ من رآهَا، أو فِكرة تكُونُ كالبَذْرةِ الصَّغيرةِ تُوضعُ في كفِّ اليدِ فتنبُتُ، لتُصبِح وُرودًا يَسْتَنشِقُهَا كلُّ من مرَّ بِجانبِكَ، قد تكون أمْنِيَّتِي بسيطة أن أرَى الابتسامةَ على وجهِ ذلك الطِّفلِ الصَّغيرِ القَابعِ في تلك الزَّاوية

المظلمَة، وقد تكونُ أمنيَتهُ بين يَديْ رغيفُ خبزٍ لا أكثر، وقدْ تكون أمنيَتِي بين كفَّي يَدي أعبرُ بهَا الجسرَ آخرِ اللّيْلِ، هكذَا أنَا أحلامي بسيطة...

لما كنتُ صغيرًا وقبلَ أن أتجاوزَ العاشرَة من عُمرِي، اعتقدتُ أنَّ للأحلاَمِ مدينة يَذْهبُ إليهَا الآباء والأمَّهات لإحضارِ الهدايَا لنَا، كُنتُ أعتقدُ أنَّ مدينةَ الأحلامِ موجودة في كوكبِنَا، سَقْفُهَا أبِي وبَابُهَا أمِّي... كُنتُ أسارعُ الزَّمنَ لأكبرَ وأذهب إليهَا لاقتناءِ ما أريد وأحقِّقَ كلّ الأمنيَّات، ظننتُ أنَّني لن أكبر، كبُرْتُ وبقيَ الطِّفلُ داخلي صغيرًا بريئًا...

لما كُنتُ طفلاً صغيرًا كانت أمنياتِي بريئة وبسيطة، أنتظرُ عودةَ أبِي كلَّ مساءٍ، أختبِئ وراءَ البابِ، وما إن ألمح هَديتِي حتَّى أركضَ إليهِ وأتمسَّك بِرجلِهِ، وأقول له: جرَّبني إن استطعتَ، فيُفاجئنِي بهديَّتِي التي كُنت أهمسُ بها في أذنِهِ ليلةَ البارحةَ، فمدينةُ الذِّكريات قد يفتحُ بابها مكانٌ أو عطرٌ أو حنين... هديَّتي لم تكن تُشبه كلَّ الهدايَا، فقد كانت عبارة عن مدينة صغيرة مليئة بالجُسُور التي تربط بين بيوتِها، سألت أبي يومَها:

طلبت منكَ أن تحضرَ لي مدينة صغيرة، ولكنَّك أضفت لهَا الجسور لماذا؟ فقالَ لي بثقةٍ: عندما تكبُر تفهم! ثمَّ نظر إليَّ نظرَةً ثاقبَة ووقفَ ملتزمًا وبسط يديهِ مُستقيمًا وقال:

-هل ذراعي مبتورة؟

-هل رجلي لوحدهَا؟ قلتُ بدهشةٍ:

لا، هي موصولة ببعضهَا البعض، الكلُّ مُتماسك، قال: كذلك الجُسُور، قلتُ: كلاَّ هي محطَّات للعبورِ، لها نقطة بداية ونقطة نهاية، ولها جانبان عن اليمين وعن الشِّمال، ثمَّ قال: عندما تكبرُ تفقهُ ذلكَ، ثمَّ ناديتُ عليهِ، بابا:

-نعم يا بلبلي الصَّغير.

-بابا اقتربْ أكثر، أُرِيدُ أن أهمسَ في أذُنكَ اليُمنَى فقد تركتُ الأذن اليُسرى لغيرِي لليلةِ البارحة، «بَابَا أريدُ لعبةَ العباقرة رأيتُهَا عند صديقِي».

-لعبةُ العباقرة!

-لم أسَمعْ بهذهِ اللُّعبة قبل هذا يا "**عمر**"!

إنَّها لعبةٌ يلعبُهَا الأطفال الصِّغار حيث تكون لكلِّ طفلٍ مملكة يُسيِّرها بذكائِهِ في اللُّعبةِ ولهُ مُدَّة مُعيَّنة، فإذَا حَكم فِيها بالعدلِ، يُحقَّقون لهُ أمنيَّتهُ.

-وما هي أمنيتكَ يا "**عمر**"؟

-أُمنيَتِي لا تتحقَّقُ إلاَّ فِي سنِّ الأربعين.

-إذَنْ؛ استمتعْ بأمنياتكَ الصَّغيرة وسنَّك الصَّغير، فالطُّفولَة زمن رائع لا يُمكنُهُ الرُّجوع إلينَا إذا كبرنَا.

-وَأمنيَتِي ماذا أفعلُ بِها الآن؟ فهِيَ تُوقِظُنِي ليلَ نَهارَ، صاحبُهَا يزُورِنِي في المنامِ.

-من هو؟

- إنَّهُ القائل: «**لَوْ كَانَ لِي الخَيَار بأَنْ أَخْتَار لَمَّا كُنتُ غَيْرَ بَائِعٍ لِلأَزْهَار فَإِنْ فَاتَنِي الرّبحُ لمْ يَفُتْنِ العِطْرُ**»

أُمنِيتِي؛ أصبحتُ لا أراهَا في العالمِ إلاَّ في قلُوبِ البُسَطاءِ والبُؤسَاءِ، أريدُ أن أراهَا في عُيُونِ الأثرياءِ، الذينَ يلعبُونَ لعبةَ الشّطرنج فيتلاعبُونَ بالمشاعرِ يَحرِقُونَهَا متَى شاءُوا، ويَجعلُونَ للقلعةِ ملكًا وملكةً ورخًا ووزِيرًا وبَيدقًا وحصاناً وفيلاً ونسوا أنَّ الملكَ واحدٌ أحدُ.

عُدتُ إلى أمنياتِي الصَّغيرة، فالكثير منَ الأمنيات كُنْتُ أراهَا في ألعابِي المختلِفةِ، وما يأسرُنِي فِيهَا هو رُؤيةُ الجسُورِ، لقد أصبحتُ مثل الفيلسوف "**ميشال سار**" الذي قال: «**أنَا لم أحلمْ أبدًا إلاَّ بالجُسُور**».

بدأتُ أكبرُ وأكبرُ وإذَا بتلكِ الجُسُور التي كَانت داخِلَ اللُّعبةِ أصبَحَتْ حَقيقيَّة، كتلك الجُسور التي زرتُهَا في رحلاتِي قَدْ تحوَّلَتْ من مادَّتها الصَّلبة، من حجَرِهَا وإسمنتِهَا وأسلاكِهَا وحدِيدِهَا إلى مَحطَّاتٍ تُواجِهُنِي في حياتِي، فعُدْتُ ببوصلةِ الزَّمنِ للوراءِ لعامِ 2000م لَمَّا قرَّرتُ زيارةَ العجائبِ السَّبع في العالمِ، فقد كانت هذهِ إحدَى الأمنيات، زرتُ بعضها وجدتها تتحدَّثُ عن نَفْسِهَا وانتمائِهَا وشُعوبِهَا، عن تُراثٍ عجيبٍ لم نعشْ نحنُ زمنَهُ، ماذا عنّي أنَا؟

عُدتُ أدراجي أبحَثُ عن أمرٍ مُختلف، أمرٌ يجْعلُنِي أنتفضُ من داخلي، شيء يربِطُني بذلكَ المكان هويةً، حبًّا، تراثًا، فمَا وجدتُ أفضل منَ الجُسورِ مُلهمًا لِي، فحياتُنَا تُشبهُ الجِسر، لنَا نقطَة بداية ونقطة نهايَة، لكنَّنَا نختلِفُ في طريقةِ العبُورِ، قَدْ يُرافِقنَا أحد ويتركنَا في نصفِ الجسرِ، هُنا مربط الفرسِ، هل سَنواصلُ؟ أم أنَّنَا سنعُودُ أدراجنَا خَائِفين؟ نَجرُّ أذيالَ الفشلِ وراءنَا، وبِهذَا التَّساؤُلُ عُدتُ بذاكرتِي لأَستلهِمَ كيفَ أعبر دون خوفٍ، دون تَردُّدٍ؟ ... عدتُ لجُسورِ قسنطينة العجيبة العريقة التي تَجْعَلُكَ مَشدُوهًا لطريقةِ ربطِهَا المدينة

بِبعضهَا البعض، كأنَّهَا الأمُّ تربطُ علاقةَ التَّواصلِ بينَ أبنائِهَا، فرغمَ المخاطر إلاَّ أنَّهم يعبرُونَ بسلامٍ...

تذكَّرتُ أوَّلَ جسرٍ زُرتهُ حقيقةً وهُوَ جسر "**صالح باي**" بقلبِ مدينةِ الجُسُورِ المعلَّقةِ بقسنطينة، تلكَ المدينة السَّاحرة بجمالِهَا وجمالِ اسمها القديم "**سِيرْتا**" التي علِقَتْ بقلبِ كلُّ عابرٍ لَها وكلّ عاشقٍ للجسُورِ فهيَ أشبهُ بمناطق العبورِ في الحياةِ، فقد أخبرُونِي مُنذ صغرِي أنَّ أشهر الجُسُور وراء الضِّفةِ الأخرى، ولم أكن أعلم أنَّ قسنطينة قد شدَّت وثاقها بِسَبْعةِ جُسورٍ حتَّى أبْصَرتُها فوجدتُها هي العجائبُ السَّبْعُ، كَيفَ يُمكن لمدينة تُبنى من حجرٍ جُسُورها فتشدُّ بعضها البعض إلاَّ حين زرتُها؟ انطلاقًا من العهد الرُّومانِي من جسرِ بابِ القنطرة الذِي رمَّمَهُ الأتراك عام (1792م) هذَا الجسر الصَّامد الشَّاهد على الغزو الفرنسِي الذي حاولَ نَسْفَ باب «جسر القنطرة» وبعد مرُورِ أعوامٍ انهارَ الجسرُ عام (1857م) خلال مُرُورِ قافلة كبيرة من مُشاةِ الجيشِ الفرنسِي، ثمَّ أُعيد بناؤُهُ عام(1863م) ليَعُودَ إلى الحياةِ ويربطُ بين ضفتَي المدينَة، إلى «جسرِ سيدِي راشد» الذي شُيِّدَ عام(1912م) الذي يُعيدُ بَوصلةَ الزَّمنِ للحضارةِ الرُّومانيَّة المبنيَّة بالحجارةِ إلى «جسرِ سيدِي مسيد» (1912م) الذي يتراقصُ على هبَّات الرِّيح فيُشعِرُ عابرهُ بالخوفِ من السُّقوطِ، إلى «جسرِ ملاح سليمان» (1917-1925م) الذي سمَّاه الفرنسيُّون جسر بُورْقُو إلى «جسر مَخَازِن الغنم» إلى «جسر الشَّيْطَان» الذي يُرِيبكَ اسمهُ لأوَّلِ وهلةٍ، وما إن تكتشف حقيقتهُ حتَّى تأتيهِ زائرًا حَبْوَا، تعلُوهُ أصوات المياهِ المتدفِّقةِ بقوَّة على جنباتهِ فتفعَلُ فِعلَها في أُذُنِ السَّامِع، إلى «جسرِ الشَّلاَّلات» الذي

شُيِّد عام(1928م) إلى «جسرِ صَالح بَايْ» الذي أطلقَ عليهِ تسميَّةَ جسر الاستقلالِ، فقد شُيِّد بعدَ خمسينَ سنة من استقلالِ الجزائر عام 2010م[1]، أخذتُ أنطلقُ من هذه الجُسُور التي تُشبِهُ رِحلةَ حياتنَا في العَالمِ بأسرِهِ، أنطلِقُ من نُقطة البِدايةِ حتَّى أَصِلَ إلى آخرِ نقطةٍ في الجسرِ، فأشعرُ بلذَّةِ العُبور فوقَهَا، وتنتابُنِي أسئلة بينَ الفينةِ والأخرَى وزَّعتُهَا بينَ صفحاتِ هذه الرِّواية، ولما كُنت أعشَقُ هذه الجُسور منذ صغري كانَ والدي يقولُ:

-حَضِّرْ نفسكَ لجُسُورِ الحَياةِ! قلتُ:

- أينَ تقعُ هذه الجُسُور؟ لم أسمعْ بهَا من قبل! فقالَ لِي:

- أمَّا **الجسرُ الأوَّل**: أنتَ، ذَاتُكَ، شَخْصِيَّتُكَ، هَلْ سَتَعبُرُ ذاتكَ التي بينَ جَنْبَيْكَ لتعرفَ نَفسكَ وقَدْرَكَ وقِيمتكَ لتُثْبِتَ مَكانتكَ في الوُجُودِ؟ في أيِّ مَحَطَّةٍ سَتضَعُ نفسكَ؟ في أيِّ سطرٍ ستكتُبُ قدركَ؟ في أيِّ بحرٍ ستضَعُ قاربكَ، في أيِّ بُحيرة سترمي بحجَرِكَ، في أيِّ كلمةٍ ستضعُ نقطتكَ؟

-هذهِ مَحطَّة العُبُور الأولَى، سيُواجِهُكَ الخَوْف والتَّردُّد والملل؛ فجهِّز أسلحتكَ لمواجهةِ أعدائكَ من عزيمةٍ وإرادةٍ وثقةٍ بِالنَّفسِ...

أمَّا **الجِسْرُ الثَّاني**: عائلتُكَ ومُحِيطُكَ الصَّغير، هَلْ سَتعبرُ قُلوبَهم بمحبَّةٍ ومودَّة دائمَة؟ هل سترافقهُم في العبُورِ وتأخذ بيَدِ الخائفِ المتراجعِ للوراءِ أم أنَّكَ ستتركُهُ يعودُ من نصفِ الجِسر؟

[1] مجلة الباحثين، العدد 75/74، أكتوبر، نوفمبر 2013.

–هذهِ محطَّة العبورِ الثَّانيَّة، ستُصادِفكَ المسؤوليَّة، الخوف، القلقُ، محبِّطات ...

أمَّا **الجِسْرُ الثَّالثُ**: فهو العالم بِأسرِهِ، أينَ ستضعُ بَصْمَتكَ في خريطتهِ، هل ستكونُ نقطة في بحرِهِ أم دمعة في نهرِهِ؟ أم أنَّك ستمضِي كأنَّكَ لم تكن شيئًا... فإذَا لم تكن وردة تُمتِّعُ النَّاظر كُن عطرًا يشمُّهُ المار بجانبِكَ، إذا لم تكُن شجرة وارفة الظِّلالِ كُن غُصنًا يحملُ حبَّة الفاكهة، فإذا لم تكن كذلكَ ستكون أشبهُ بأوراقِ الشَّجر تسقطُ في وقت الضُّعفِ.

–هذهِ محطَّةُ العُبورِ الثَّالثة، سيُصَادفكَ الفشل، الكره، الحسد، الحواجز و....فجهِّز نفسكَ لعبورِ هذه الجسور معنا عبر هذهِ الصَّفحات التي تروِي آلامنَا وآمالنَا.

إذا كُنت تُريد الشُّعور بلذَّةِ العُبور فوقهَا، فابدأ بذاتك لتصلَ للآخر، فالعالم الدَّاخلي لنا هو مرآة نبصرُ عبرهَا العالمَ الخارجِي، فكلُّ الأُمُورِ التي تحدثُ لَنَا تُشبِهُ الجُسُور، لهَا نقطة بدايةٍ ونقطة وصُول، لكنْ هل الجميع يَصل؟ هل الجميعُ سيَعْبُرُ بِسَلامٍ؟

–هل الجميع يملكُ القوَّةَ والصَّبر ليجتازَ كلّ هذهِ الجُسور من قوسِ ولادتِهِ إلى قوسِ وفاتِهِ؟

–يا بُني، حياتنا مليئة بالجُسُور، فحاول أنْ ترسمَ شيئًا جميلاً حين مرورِكَ واترك عطرَكَ وبصمتكَ، فالجُسُور الموجودة في الألعابِ ليست نفسهَا الجُسور الموجودة في واقعنا.

– هل تعلم أنَّ أكثر ما يستهوينِي في الجسر هو نُقطة البِداية ونقطة النِّهاية؟ أمَّا منطقة العبور فوقهُ فتُظهِر الخير والشَّر، أمَّا ضفتيهِ فهي

تفصل بين الأبيض والأسودِ، فلكلِّ قصَّة من القصص بدايات ونهايات، تختلفُ البدايات فتختلفُ النِّهايات.

هُنا تركنِي والدِي ورحلَ لأعبرَ جسِري وحدِي، هكذا كانت كلماتُ أبِي تنقشُ رسمَهَا في عقلي إلى أن كبرتُ وكَبُرَتْ معِي الهُمُوم، ليتنِي بقيتُ طفلاً! أحلمُ بلعبةٍ يحضرُهَا أبِي، أشتهِي أكلةً تطبخُها أمِّي، فأطيرُ فرحَا بها.

-كَبُرْتُ وكَبُرَتْ أمنياتِي، أصبحتُ في عُمْرِ عيسى لما رُفِع، أخذْتُ ألهثُ وراءَ أمنياتِي، أحاولُ تحقِيقَ الواحد تلو الأخرى إلى أن وقفتُ ببابِ أجمل أمنية في حياتِي هي دوام وجود نور العينِ بجانبِي، فهيَ الوحيدة التِي يحقُّ لها أن تقولَ حبيبِي، لأنَّهَا أقرب النَّاسِ إليَّ مُنذ كنت موصولاً بحبلِهَا السُّرِي، من أجلِهَا تخلَّيتُ عن كلِّ أمنياتِي، وأصبحَ بقاؤُهَا بجانبِي أكبَر أمنياتِي، قبلَ ذلك لم أكترثْ بشيءٍ، ظننتُ أنَّ أغلبَ الأمنيات لدَى الشَّباب هو الثَّراء، الجمال، السَّيّارة الفخمة، لكن حينما شعرتُ باقتراب فقدهَا وأنَّ حضنها سيكون أمنيَّة تخلَّيتُ عن كلّ أمنياتي، رَميتُها كلّهَا من أعلَى الجسر وأنا أرقبُهَا بدهشةٍ لا مثيل لَها! تتهاوَى فيأخذُها الهواء يَمينًا وشِمالا، إلاَّ أمنيَّةً واحدة أبقيتُهَا بكَفَّيْ يَدي وتضرَّعت بِها ربَّ الكون بالكافِ والنُّون، كتلكَ الأمنيّة التي بين جنبيكَ تُخْفِيهَا عن العالم بأسرِهِ، تضعُهَا سرًّا بينكَ وبينهُ، فكلُّ الأسرار لها مستقرٌ واحد، فإذا تعدَّد مستقرُّهَا تعدّد مفرُّها من لسانٍ إلى لسان، إلاَّ السرّ الذي بينكَ وبين الله، فاترك أمنيتَكَ بينكَ وبينهُ، لكنِّي سأخرقُ هذا القانون وأجعلُ السرّ بيني وبينكَ لأنَّ أمنيّتي هيَ أمنيَّتُكَ

وأنا واثق من ذلكَ، أعبر معنَا الجسر وستَعرف الأمنيّة المشتركة بيننا، فإذا تحقَّقت فستتبَعهَا الكثير من الأمنيات...

"الأمنيَّةُ البيضَاءُ"

كبُرَ "**عمر**" وأصبحَ شابًّا يترقرَقُ الماءُ الحسنُ في وجههِ بَهيُّ الطَّلعةِ، زادهُ الله بسطةً في الجِسمِ، لم يشعر بمرورِ السِّنين حتَّى وجدَ نفسهُ أمامَ أصعبِ الجُسورِ في الحياةِ، لم يُعلِّق أمنيَةَ براءتهِ حِينَ رُمِيَ في زنزَانةِ الظُّلْمِ وإنهاء معاناتِهِ، بل تركهَا تطير فوقَ السَّحابِ، وأخذ يُحاولُ أنْ يَعُبرَ الجسرَ بكلِّ محطَّاتهِ الحزينة والمفرحة، المحطَّات التِي أضحَكتْهُ وأبْكَتْهُ، وأثناءَ عُبُورِهِ حملَ معهُ أمنيَّةَ الفقير والغنيّ، أمنيةَ الصَّبيّ والشَّاب، أمنيَّةَ حَوَاءَ وآدَم، أخذَ ينثرُ الكثير من الأمنيات هُنا وهناكَ! أمنياتٌ نشعرُ كأنَّهَا تخصُّنا وحدنَا، لكن هُناكَ من يشتركُ معنا فيهَا، لذلكَ سأعبرُ إلى حالِ سبيلي وأترككُم تعبرُونَ الجُسُور مع "**عمر**" الذي يُذكِّرُنَا بينَ الفينةِ والأخرَى بالزَّمن الجميلِ عبر ذكرياتِهِ!

كُنتُ أفتخِرُ باسمِي "**عمر**" ولم أكن أدري إذا كان يحملنِي أم أنَا الذي أحملُهُ، إلاَّ حِينَمَا مررتُ بالجسرِ وحملتُ معِي أمنيَةَ ذلِكَ الشَّابِ اليافعِ الجالسِ على الرَّصيفِ، مُرتديًا سروال جينز مُقطَّع بلون أزرق ينتظرُ سماءهُ أن تُمطر، وقميص نصفُه تحتَ الحزام ونصفه الآخر خارجهُ، يترقَّبُ حظَّهُ العاثر، ينثرهُ عبر دُخَّان سِيجارتِه نفَسَهُ، يبعثُهَا رسائلاً للمارَّة، جَالستُهُ فوجدتهُ يَحلمُ بوظيفةٍ لائقةٍ وسيارة أنيقةٍ وفتاة جميلةٍ لتكون زوجتَهُ وشريكةَ حياته في السَّراءِ والضَّراءِ فسألتُهُ:

-ماذا أعددتَ لتحقيقِ حُلمكَ؟

قال: أنتظرُ فُرصتِي لتأتِي إليَّ مهرولةً.

نظرتُ إليهِ والأسَى يتملّكُنِي لِجوابِهِ، لا يعرفُ كيف يعبر جسرَهُ؟ جَالستُهُ اليوم كاملاً حتَّى شعرَ بالعطشِ، فقالَ:

– أستسمحكَ دقيقة، أريدُ إحضار ماء لأشرب، فقلتُ له:

–انتظر القارورةَ حتَّى تأتيكَ مُهرولةً؟!

–قطَّب حاجبيهِ ونظرَ إليَّ باستغرابِ! ظنَّ أنَّني أستهزأ بهِ، تركتُهُ بُرهةً يُعيدُ جمع شتاتِ أفكارهِ وانسحبتُ، ثُمَّ حادثتُ ابنة عمّي في مُقتبلِ العمر فوجدتُها تحلمُ بفارسِ الأحلام ليأخذَهَا فوقَ فرسِهِ، فسألتُهَا: ما هي مَقاييس فارس أحلامك؟ هل هيَ واقعيَّة أم أنَّك تبنَّيْتِها منَ المسلسلات والأفلام؟ أم من ذلكَ العالم الافتراضي الذي يُبكِيكُم أكثر ممَّا يُفرحُكم؟ قهقهت، فانصرفتُ وتركتُها تبتسِمُ دون جوابٍ، فالسُّؤال كانَ ثقيلاً عليها.

واصلتُ طريقي حتَّى وصلتُ عيادة الطَّبيبِ، مكتوب أعلى البابِ: طَبِيبُ القُلوب، دخلتُ لأكشفَ عن الهُمومِ التي أثقلتْ قلبِي وبينمَا أنا جالسٌ في غرفةِ الرِّجال استهوانِي حديث النِّسوةِ الواصلِ إلينَا عبر نسمات هواءٍ عطرهنَّ الفوَّاح، ففاكهةُ النِّسَاء تنضجُ صيفًا وشتاءً! دُونَ قصدٍ منِّي أطلقتُ العنانَ لسَمعِي، لأنَّ حديثَهُنَّ أخذَ يتسرَّبُ من قاعةِ الانتظار الثَّانيةِ، فإذَا بِعيْنَي تتجوَّلانِ لتتخيَّلَ صُورًا لملامحِهنَّ وهُنَّ يتجاذبنَ أطرافَ الحديثِ، فتخيَّلتُ المرأة التي ترفعُ صوتَهَا فوق سطح قاعة العلاج بشِفَاهِ مفتوحةٍ مقلوبةٍ كأنَّها حواف مُكبِّر صوتٍ، وصوتُ المرأة التي لا تصمتُ وتتدخَّلُ في كلِّ المواضيع كأنَّها إذاعة تتكلَّم على مدار 24 ساعة، لا تصمت الصَّمت أبدا، كأنَّهنَّ مثل الصَّناديقِ المملوءة بأسرار العائلةِ، ما إن يلتقِينَ حتَّى يُفرِغْنَ تلكَ الصَّناديقَ،

عَجِبتُ لهُنَّ! صرفتُ أذُنِي عَنْهُنَّ لكنَّ حَديثهنَّ عن الأمنِياتِ أرغمنِي على السَّماعِ.

فَإِذَا بامرأةٍ تتمنَّى أنْ ترَى أبناءَها نجُومًا برّاقة تلمعُ في سوادِ اللّيْلِ، فأخذَ السُّؤال ينتفضُ داخلِي كَأنِّي أُخاطِبُهَا:

–ماذَا فعلتِ لأجلهِنَّ؟ وغيرها تتمنَّى أنْ تنجبُ ولدًا أو بنتًا، وَإذا بِالعدوَى تنتقلُ إلى قاعةِ الرِّجال، كلُّ رجل يتمنَّى أن يكونُ ثريًا، كلُّ طفلٍ يتمنَّى أنْ يكبرَ ويصبح أستاذًا، طبيبًا، طيَّارًا، بحَّارًا، مُهندسًا صرت ألتفتُ يمينًا وشِمالاً، وعيناي كأنَّهما لعبة بين أيديهِم، تاهت أسئلتِي بينَ الأحاديث، رفعتُ بصرِي نحوَ شاشةِ التِّلفاز لعلِّي أرسُو على برِّ أخبارٍ جديدةٍ، حِينهَا ازدَادَتْ حسْرَتِي لما أبصرتُ الدُّموع تنهمرُ من عينِي طفلٍ، أسْبَالهُ بالية يتمنَّى الحُصُول على رغيفِ خبزٍ والعيش في سلامٍ تحت سقفِ بيت آمن، ذرَفتْ عيناي دُموع الحسرةِ، وازداد ألمُ قلبِي، طأطأت رأسِي برهةً من الوقت ثمّ أمسكتُ بيمينِي آلةَ التَّحكُّم وغيَّرتُ القناة، وإذا بشيخٍ في مثلِ سنِّ والدِي قد ناهزَ السَّبعينَ يتمنَّى أنْ يزورَ بيت الله الحرام الذي يزُورُهُ يوميًّا بعيُونِهِ من خلال مُشاهدةِ شاشةِ التِّلفاز، كَمْ هيَ عجيبة تلكَ المفارقات! تُشبهُ أمنياتنَا التي تصعدُ يومِيًّا إلى السَّماءِ عبرَ أكفِّ الضَّراعَةِ.

كلّ يومٍ نَمُرُّ عبرَ جسرِ الأمنياتِ التي نتمنَّاهَا في حياتِنَا، ونرَى بأمِّ أعيننَا التِي تحقَّقتْ وننتظرُ التي لم تتحقَّقْ، فكَمْ من الأمنياتِ بقِيتْ مُعلَّقةً بين السُّحبِ والجُسُورِ؟

شَقَقْتُ طَرِيقِي فوقَ الجسرِ بخُطواتِي المتثاقلةِ، لعلّي أتركُ وَرَائِي كُلَّ أحزانِي وهُمُومِي، ومرَّة أخرى تَجِدُنِي أسَارِع الزَّمنَ حتَّى لا يسبقنِي وأجدُ نفسِي قد كبرتُ ولم أرسمْ على كَفِّ القدرِ لونًا زهريًّا أتفاءلُ بهِ، أسابقُ الزَّمنَ حتَّى أتركَ بصمتِي، لا ألتفِتُ خَلفِي حتَّى لاَ يضيعُ عُمري وأنا أنظرُ خَلفي...، فمَا أكثر الجُسور التي عبرتهَا! ومع أنَّهَا مُتعبة وشاقَّة لكن يعقبهَا دائمًا الفرح والشُّعور بالنَّجاحِ، فكلَّما مررتُ بجسرٍ أُعلِّق أمْنِياتِي وأترُكُهَا لِأَنفَاسِ القدرِ يكتُبُهَا، كمَا خطَّهَا القلمُ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ خَلقِ الخلقِ، فلستُ الأوَّلَ مَنْ يُعلِّقُ الأمنيات ويترُكُهَا تتأرجحُ بين جنباتِ قلبِهِ وعقلهِ، ولن أكونَ الأخيرَ، فقد وصَلتُ حبلَ أُمنيتِي بيقينٍ نازلٍ من السَّماءِ، وتركتُهَا تحلّق وتصعدُ فوقَ السُّحبِ، فلطالمِا استهوتنِي غيمةَ القطنِ كلَّما نظرتُ إليهَا، وتساءلتُ مُتَعجِّبًا: كيفَ تشكَّلتْ؟

-سُبْحَانَ الله!

-هلْ تَسَاءلْتُم مِثْلِي؟

كلّ يومٍ أتأمَّلُ الكونَ من حولِي، أرفعُ رأسِي لأرَى الشَّمسَ فِي بَهَائِهَا، وأتفقَّدُ أمنيَتِي إذا كانت لاتزالُ في مكانِهَا، وأترُكُهَا تُحلِّق بسلامٍ لعلَّهَا تعودُ إليَّ يومًا مَا حاملةً لي قطعًا من السَّعادة! فقد سبقنِي الكثير منَ الشَّبابِ أمثالِي ممَّن علَّقَ أمنيَتَهُ نُصْبَ عينيهِ وسارعَ لتحقيقِهَا، فأنا لستُ ممَّنْ يكتبُ أمنيَتهُ فوقَ الجسر ويَزورهَا ليبكِي حظَّهُ.

أنا لستُ مِمَّن يَرونَ الجُسورَ محطَّات لنهايَةِ قِصصِ حبِّهِم ليحتفِلُوا بهَا حينَ يَحُولُ الحول، بل أراهَا محطَّةَ عبورٍ قد تُرهقنِي وتتعبني حينًا، وقد تكون حينا آخر مُلهِمًا أعبرهُ لأصلَ إلى محطَّةٍ لطالمِا حلمتُ بهَا.

في هذه اللَّحظة توقَّفَ العبور لينتفضَ السُّؤالُ بين جوارحِي: هل سنعبرُ بالرُّوحِ أم بالجسدِ؟ توقفتُ حينهَا، وضعتُ يدي على خدِي اليمين، دخلتُ في حديث بيني وبين نفسي: «الخفةُ للرُّوح والثِّقل للجسد»، حتَّى سَمِعتُ صوتًا آخر من داخلِي يقولُ: يا "عُمر" دع أفكارك تحلّق بسلامٍ عبر الجسر، لا تكترث للَّذينَ يقولُونَ عنك سفها، هل عبرُوا إلى رُوحِكَ الشَّفافة حتَّى يحكمُوا عليهَا؟ دعْ عنكَ كلّ مَا يُثقلُ كاهِلَكَ وكُنْ كَالجِسْر في العلوّ، في الصُّمودِ، لا يمرُّ عبره إلاَّ من كان ذَا همّة كبيرة وإرادة عَجيبة، قِفْ وسطَ الجسر وارتقبْ الكون مِنْ حولك، البشر كأنَّهم لعب مُتناثرة هُنَا وهناك، تروحُ وتجيء، كُلّ مُنشغل بنفسهِ، لا تستطيع أنتَ رؤيةَ هُمومِهِ ومشاغِلِهِ، ولا هو يستطيع ذلك! قد يستقبلكَ بوجهٍ بشوش طلقٍ والهموم تغمره غمرًا، يُخفيهَا ولا يظهرهَا، ما يُظهر إلاَّ لغة الحمدِ والشُّكرِ، بعكسِ الآخر دائم العبوس كثير الشَّكوى تتمنَّى ألاّ تبقى معه دقيقة أخرى، دع عنك كلّ هذا يا "**عمر**" وانطلق لتحقيقِ أمنيتكَ التِي تنظركَ أعلى الجسر، استنشق هواءً نقيًّا ليملأ رِئتيكَ وارمِ عنكَ همومكَ واتركهَا تتناثرُ أسفلَ الجسرِ، فالأرضُ السُّفلى هي محلّ الهمومِ والسَّماء العليا محلّ الفردوس، فهو الوحيد الذي يبصرُ دواخلنا فيُعطينَا بقدرِ طيبَتنا وحبّنا للنَّاسِ.

-إنَّهُ الواحدُ الأحدُ.

كلّ يومٍ أعبرُ الجسرَ لأشقَّ عبرهُ سبيلَ تحقيق الأمنياتِ، أقفُ مُتأمّلاً الكونَ من حولي، لا أحدَ يعبأ بِي، الكلُّ منشغلٌ بحالهِ وأحوالهِ، أتأمَّل كيف تغدُو النَّاس خِماصًا وتروح بِطَانًا؟ أتساءلُ: هل يحمل الكلُّ في يدهِ اليمين أمنيَة؟ وفي الشِّمالِ ريح تحملُ كلّ ذكريات الشَّباب يتمنَّى

الكلّ لو يُعيدها الزَّمن، وأنا من بينهم، تمنيتُ لو أستعيد مع أمّي تلك الفرحة والابتسامة التي ملأت قلبِي يومًا، وجعلته يرقصُ كالطِّفل الصّغير، لا يعبأ بأحدٍ، لا يشعرُ بمسؤوليّة الفعل والكلام، كأنَّ الكون يضحكُ لي وحدِي، والآخر يتمنَّى لو يعود الزَّمن للوراء قليلاً حتَّى يتسنَّى له إعادةَ ترتيبِ أفكارِه، ويسحبُ كلامَهُ الذي قالهُ يومًا، ويُسْكِتَ غضبهُ ويَعْدِل عن تصرفاتِهِ، لكي لا يقعَ ما وقعَ، يتمنَّى لو يعود الزّمن للوراء فيمسك الكلام من لسانِهِ، وينثر عطره على كلِّ الأحباب، لكنَّ الحياة لها ألسن عديدة تُذِيقُنَا في كلّ يوم حلاوة ومرارة، يُرتِّبها القدر فَنَتذوَّقُها نحنُ بأفعالِنَا، فأنا لم أعرف السَّعادة إلاّ مع اسمي "**عمر**" لما لهذا الاسم من هيبة تُذكر، ومع أمّي "**عائشة**" وخطيبتي "**ماريا**"، فأنا دائم التَّساؤل عن الحياة التي أحياها؟ مرَّة تُفرحُنِي ومرّة تبكينِي، لا أنسى يوم سكبت دموعِي من أعلى الجسر، يوم تجمَّعت وأصبحت نهرا يسبحُ فيه أمثالِي، يوم أهانوا الرُّوح وانتصروا للجسد، أتساءل عن دموعي؟ ما سبب سقوطها؟

فلا أحدَ يبكِي فوقَ الجسور إلاَّ العُشَّاق! ولا أحد يزورُ الجسور إلاَّ من له أمنية علقت به مِثْلِي، ذرفتُ دموعِي من أجلها، إنَّها نبعُ الحياةِ، إنَّها السِّين والعين، فحينَ علمتُ أنَّها مصابة بـ... تمنّيتُ لو انشقَّت الأرض وبلعتني، لكن هذه الأمنية لم تلبث إلاّ برهةً وسقطت، ذهبت مسرعًا إلى الجسر، لحقَ بي الجميع ليشهدُوا جنازة الشَّيطان حين نفثَ سمَّهُ في وجوه البعض فسوَّلت لهم أنفسهم أمرا، وقال لي:

– أنت عاجز، أنت فاشل.

حينها ذهبت للمكان الذي يذكّرني بمرورنا عبر الصِّراط، حينها تركتُ دموعي للضَّعيف، للجبان، فأنا لست ممَّن يرمُون أنفسهم من فوق الجُسور، أخذ الجميعُ ينظر إليّ، ينتظر أخذ صور بلهفةٍ، يتسابقون لنشر الأخبار والصّور على صفحات الفيسبوك وانستغرام، وأنا أنظرُ إلى أعلى وأناشد أمنيتي فوقَ الجسر، لا أريد سواها، فهي السِّين والعين، هي سَعادتِي، أعيشُ فقيرًا، فهي ثرائي، أعيشُ وحيدا لكنَّها عالمي، إنَّها أمّي.

من خلال مرضِهَا رأيت الصِّراع في عيون البشرية، إهمال، شفقة، لا مبالاة، قلوب جامدة، صراع بين الخير والشرّ، هذا يُولد والآخر يموت، هذه هي سنّة الحياة، فكلّنا سنمرّ عبر جسر واحد، ونكتب عليه أمنية واحدة... العبور بسلام إلى الضفّة الأخرى.

هذا الصّراع الذي جعل الدّموع تسيلُ كالأنهارِ، كم أغرقت منَّا في بحر الحياة؟ في بحر الحبِّ؛ مِلحُها أجاجٌ؛ كم أحرقتْ من خدٍ ورديّ؟ دائما كنتُ تائهًا في بحرِ أسئلة أرّقتني، تجذبني حينا إلى اليقين وحينا آخر إلى متاهةٍ.

هكذا هيَ أحوالنَا، احتراقُ المشاعرِ دون دخان، دون صوت، فحتَّى نبض القلوب يتدحرجُ على سلم الصَّبر، فيضانُ الدّموع دون غرقٍ، حِبْرٌ وجد نفسه ينزفُ بين السُّطورِ ووسط الجسر، يُريدُ العبور إلى العُقولِ، عبر أيّ جسرٍ؟ فجسورنا لازالت معلّقة فيهَا أحلامنا بين الماضِي والحاضر، كم من الأمنيات لا تزال معلّقة تنتظر أنفاس القدر لتتنهد وتتنفّس الصُّعداء من جوفِ أمنية تحلّق فوق الجسور؟

عن أيّ جسر أتحدَّثُ؟ فالجسور كثيرة، أتراه جسرُ العشَّاق الذي زُرناهُ سويةَ بجزيرة "لنكاوي بماليزيا"، وكتب كلّ حبيبين على أقفالٍ اسميهما حتَّى لا يفترقَا، إلاَّ أنا وهي زُرناهُ ومَشيْنَا على طريقه الذي لا يكاد يتجاوز عرضهُ مترا ونصف، يهتزُّ تحت قدميك فتميلُ يمينا وشمالاً وعلى حوافِهِ علِّقت آلاف الأقفال التي يُشبهُ شكلُها القلب وبكلِّ الألوان، وإذا نظرت أسفلهُ تشعر بدوارٍ، لكنَّنا لم نكتب أسْمَاءنا، لم نكتبْ «**عمر وماريا**» وحين طلبَت منّي خطيبتي شراء قفل صغير بلون زهريّ، شكله يشبهُ القلب وأن نكتب عليه اسمينا، رفضت ذلك، فأنا أحمل اسم "**عمر**" أخاف لو كتبتهُ لهوى الجسر من دهشتهِ، حينها سألتني وهي منزعجة منّي:

-لماذا لم تسمح لي بكتابة اسمينا؟ أخشِيتَ أن يُقرأ اسمي "**ماريا**" واسمكَ "**عمر**"؟

-اسمي "**عمر**" تعرفين من هو "**عمر**"؟

-لست أنا المرأة الأولى التي سمّيت "**ماريا**" ولا أنت أوَّل من سمِّي "**عمر**".

-مجنونة أنتِ! فأسماء الكِبار لا تليقُ إلاَّ بالكِبار.

اقرأ أسماء كثيرة: ماريسا وجوليو، نينيا وموخيرو، نرجس وسامي ونادية.....

نظرت إليَّ وهي تنتظر جوابًا، فلم أكثر معها الكلام وقلتُ:

-محلُّكِ القلب، فما حاجتِي لأكتبه على حديد صمّ بكم؟ جعلتك بين دفاتِ قلب ينبضُ باسمك. وبعدما سمعت "**ماريا**" هذه الكلمات تناثر العطر من القارورة لبرهة ثمّ قالت لي:

– تمنّيتُ لو كتبتَ اسمِي!

حينها أدركت أنّ الأمنيات موجودة في كلِّ مكان وزمان لا تتوقّفُ عن الطّيران، ثمَّ قلت لها: لقد تكفّل القدر بكتابته.

حينها سكت الكلام عن الكلام، أدركتْ خطيبتي كم هي بلهاء؟ فحبُّ الرِّجال يختلفُ عن حبِّ النّساء، وتعبير الرّجال عن الحبّ لا يظهر في كلِّ وقت، كأنَّ حبّهم يُشبه الهلال لا يأتي إلاَّ حين تترقّبه المرأة، وترفع بصرها إلى أعلى لتُبصِر نور الرّجل القادم إليها من حيث لا تدري، فالهلال لا نرقبه وأعيننا تبصر أسفل قدمينا.

ثمّ بادرتني بالسُّؤال: أتظنُّ أنَّ كلّ العشاق الذين مرّوا من هذا الجسر لم يفترقَا؟!

–أتظنُّهُم يزورونَ هذا الجسر اليوم؟ ليسترجعُوا ذكريات مضَّتْ.

–أتظنُّهَا خطيئة جاهليَّة أم عادة حُبٍّ تفاؤليَّة؟

لا هذا ولا ذاك، فجسورنَا اليوم لم تصبح حجارة، بل حقيقة يوميَّة، دعينَا من هذا وعُودي إلى واقعنَا، في كل يومٍ أخبار جديدة، قنوات تتنافسُ تبثُّ الوهم والحقيقة، والعالم يُشاهد تارةً أفلام الرُّعب وتارةً أخرى أفلام الحبِّ، فما حاجتنا لذلك؟

–وهل ودَّعنا الحبَّ بيننا حتَّى نستدعيه أفلامًا؟

لازلتُ في عالمِ المشاعر، الحبُّ موجود في كلِّ زمان ومكان، بين الكبار والصِّغار، هو اللُّغة الوحيدة التي لا يتركها البشر، رغم أنَّ الدّم لا يزال يسقي الأرض منذ الأزلِ، تتساقطُ الألوان والأعلام، بعدما كانت ترفعُ عاليًا فوق الجسور، الكلُّ يشاهد الفيلم الأخير في حلقتهِ الأخيرة،

دون حراك، الأعين جاحظة، مشاعر تنتفضُ وأخرى جمّدُوهَا في ثلاجة، تستهلك عند الحاجة، من يدري متّى يحين دورنَا؟

الجميع مُنشغل بحالهِ وأحوالهِ، والعالمُ اليوم مضطربة أحواله الجويَّة، يُعاني عاصفة هوجاء، لا تلبثُ أن تتوقَّف، يجعلكَ تشعر بالأمان حين يبتسمُ، وحينًا آخر يُشعركَ بالخوف لما هو قادم، ويجعلكَ تتدحرج في متاهة السُّؤال: هل تتبدّدُ الغيوم؟ وينزل الغيث؟ أم أنَّ ليلة الاضطراب ستطول وتطولُ ونحن نسير فوق الجسر، والأمنية تذهبُ يمينا وشمالاً.

ودَّعت هذه الأفكار وعُدتُ إلى بيتِي، وأنا أحملُ أمنيتِي باليمين، استلقيتُ على السَّرير، ولبرهةٍ ظننتُ أنّني أمسِكُ لعبتي الإلكترونيَّة التي كنت ألعبُها دائمًا في صغري، أصعدُ متنقلاً من جسرٍ إلى جسر لأصل إلى الجسور المعلّقة، وأثناء تنقّلي من جسرٍ إلى آخر يعترضُ طريقي الأشرار، وكعادتي أحاولُ التخلُّص منهم، حتَّى يصبح العالم جميلاً تملؤه المحبة والسّلام، أواصلُ الاستمرار في اللُّعبة وأصلُ إلى هدفي، كنتُ دائما أحصد النِّقاط، هأنذا أتفوَّق على الأشرار! لأصل إلى جسري المفضَّل، هذه هي لعبتي، وهذا هو زمن الطُّفولة.

لكنَّني الآن كبرتُ وتركتُ ورائي لعبتي الصَّغيرة، كنتُ أحنُّ إليها، لكنَّ حنيني لم يلبث إلاَّ بضع سنين ووضعنِي أمام لعبةٍ حقيقيّة، لم أكن أظنّ يومًا أنَّ لعبتِي ستكبُر معي، كيف ذلك؟! كيف للألعابِ التي كنتُ أرى فيها معركة بين الخير والشرّ أن تصبح حقيقة، أطفال يهجرونَ أوطانَهم إلى أوطانٍ لم يألفُوهَا، في لعبتي كُنتُ أعيدهم إلى أوطانِهم، لكن اليوم أصبحتُ عاجزًا أمام سؤالٍ: من يصنعُ الألعاب؟ من يركّبُهَا؟

هَأنذَا أشاهدُ الأشرارَ الذين كانُوا في لعبتِي ينتشرونَ في العالم، يُغرقونَ البشرية وأنا عاجزٌ مكبّل اليدين، لأنَّهم أقوى منّي، في لعبتي كُنت أقوى منهُم ذكاءً، واليوم صرتُ عاجزًا أنظر كما ينظرونَ، وأسمعُ كما يسمعونَ، ولا أعبرُ كما يعبرُونَ، إلى أين؟ فأنا لا أملك باخرة، ولا طائرة، أملك تأشيرة واحدة أعبر بها كلّ القلوب بمحبتي وصفاء نيَّتي هي تأشيرة الحبِّ.

لكنّ أمّي "**عائشة**" كانت تقول لي دائمًا: سنعبر كلُّنا إلى محطتنا الأخيرة؟ نعم؛ لكن عبر جسور أفعالنا، فالعبور إلى الضِّفة الأخرى ممنوع بالتَّأشيرةِ، ممنوع بجواز السّفر، فالأفعالُ هي التي تصنعُ لنا جسرًا نعبرهُ بسلامٍ دُونَ وجلٍ، كم هو جميل أن نعبر العالم وننثر المحبّة في كلِّ مكانٍ؟! هي أمنية لا زالت معلَّقة فوق الجسر.

سنعبرُ، لكن دونَ أن نحتلَ القلوبَ قهرًا، بل نعبرها حبًّا، فالمعركة لا تزالُ ملتهبة، تحرقني، فقد تهتُ بين السُّؤال والجواب، لا أستطيعُ أن أفعل شيئًا، فقد بتُّ عاجزا منذ أن كبرتُ وكبرت معي أحلامي، فأنا اليوم أحنُّ إلى طفولتي، إلى لعبتِي، كي أرقصَ فرحًا لاستقبالِ العيدِ، كي أضعَ ملابسي الجديدة بجانبِ وسادتِي، كيْ آخذ أطباقَ الحلوى إلى الجيران، كي أرى الحناء مُخضّبة في يَديْ أمّي، كي أنهضَ قبل آذانِ الفجر وأملأ البيت بهجةً بصُراخي، بكلامِي، بأناشيدِي، فالفرحة أصبح زمنها بلا زمن وعمرها بلا عمر، فأنا لازلت أحمل أمنيتي في يدي اليمين، إنَّها أحلام تريد أَنْ تعبر عالم الحقيقة، يُتعِبُنِي هذا العالم المضطربُ، هذا العالم المشوَّه جنينه، هذا العالم الذي يعاني آلام مخاض ولادة قيصرية.

-آه؛ أريدُ أنْ أستريح كما استراح "**عمر**" لكنَّني لم أفعل مثلما فعل.

غفَوتُ على أملٍ أن أستفيق وأجد العالم من حولي سماؤه زرقاء صافية، كأنَّها قُطن أبيض، وشمسه تتسّلل إلى كلّ البيوت، فهي الهبة الإلهية المجانيّة، وأكتب على قطن سمائي؛ ما نحن إلاَّ عابرو سبيل على جسور الصّبر، فاتركونا نعيش بسلام، فالحَمام الأبيض لا يزال يحلّقُ في السّماءِ وسَيُعَاتبكم، لماذا خذلتموه؟ ولم تكتبوا على سمائه: السّلام.

وهل نستطيع أَنْ نكتب على السّماء؟ أو على السّحاب، بأيّ لونٍ؟ بأيّ عطرٍ !؟ بماء الزّهر الذي كانت أمّي "**عائشة**" تعطِّر به قهوتنا، أم بالمسك والعنبر فعطرنا لا يُشبه عطرهم، عطرنا عرق من جهد جبيننا، عطرنا من عرق أرضنا يفوحُ، عطرنا من لمسة التّراب تدركه، فليسجلوا أنّنا نحبّ الأرض وسنكتب عليها.

-بأيّ حبرٍ؟ بأيّ مداد؟ سينفذ الحبرُ وينفذ المداد لكن كلمات الحبّ للأرض لن تنفذ، وكلمات لغتي لن تنفذ، فكلّ اللُّغات تشيخ وتهرم إلاّ لغتي، فهي الودود الولود، بها سنكتب؛ لكن بأيّ لونٍ؟ هل سنفعلها مثلما فعلها شاعرنا "مفدي زكريا" أيَّام الاحتلال، حين كتب "الإلياذة" بدمه في زنزانته لأنّه لم يجد قلمًا ولم يجد حبرًا، لكنّه كتب بالدَّم بالحبِّ نعيش للأرض وللوطن، فالكتابة روح من روح.

قلَّبت أمنيتي ثمّ سألتُ نفسِي:

-أنكتب بالبياض أم بالسّواد!؟ فحتَّى السّوادُ يُضحّي من أجل العالم، ها أنتم تقرؤون السَّواد كيف ينثر حروفهُ على البياضِ، ليستفزَّ روحكم الضّائعة بين الأنا والآخر؟ فبيننا وبينه معركة للسَّلام للحبِّ

سترسو على برّ الأمان، لكن معركة الحبّ لا تنته أبدا، وهل يموت الحبُّ يوما، تنتهِ المعركة لينتصر الحبُّ، ويلتهب العشق.

العشقُ! فأنا لا أعشق، لأنّ العشق أحرقني، وأشعل حربا ضروسا لحدِّ الآن لم تنته، أحرق كلّ القرى داخلي، أحرقَ كلّ المدائن حولي، فقط من أجل هذا العالم ليحيا فيهِ الحبُّ ونزرع على بساتينه شجرة الزيتون.

الحبُّ!

فأنا لا أحبّ؛ لأنّ الحبّ لم يولد بعدُ...

أنا أنتظر مهديَهُ المنتظرِ، في أيّ شهر سيُولد؟ ننتظر ميلاده ليخلِّص العالم من وهمه، من براثينهِ، فأنا أحضِّر له مهده منذ أنْ بُشرت به، حتّى اسمه موجود، فأنا لم أتعب في إيجاده، لكن من أيّ جسر سيعبر؟ وفي أيّ محطَّة سينزل؟ لا أدريّ، فأنا أنتظره وتائه بين جسور الحبِّ والعشقِ.

دون جدوى، بين العشق والحبّ رسائل مطويّة قديمة...وجسور معلّقة فوقها الأمنيات، أقفُ في وسطها لأستنشقَ من هوائها الذي يُعيد إلى العالم رائحة الأصالة الضّائعة، وأسترجع ذكرياتيّ، فمعركة الحبّ قد بدأت لتعيد إليَّ شبابي، وأفتح رسائلي الصّفراء القديمة المكتوبة بالسَّواد على الصَّفار لا على البياض، هذا السوّاد الذي أغرق الكثير من العشّاق، الكثير من الكتّاب، فالكتابة مجازفة، إبحار في عالم الكلمة، دغدغة للمشاعر، وإن لم تكن كذلك، فليست سوى أوراق مكدّسة.

لازلت أعيشُ على أعتابِ الأمنيات، على هذه الذِّكريات التي غزتني دون سابق إنذار، لم أشعرْ حتَّى وجدت اللَّيل أسدل ستارهُ ورفرف

برياتهِ، غفوتُ والأحلام تُراودني، غلّقتُ الأبواب وقلتُ لها هيت لك، أطلقتُ العنان للأحلام وأرخيت لها الزِّمام خوفا من أن نصطدم بالآلام وأفكاري لا تزال تحدثُ ضجيجا من الأسئلةِ داخل عقلي.

هكذا نحنُ وهكذا هي، صراعٌ منذ الأزل، فهي لم تزل تبحثُ عن السّلام، كلاهما يبحث عن السّلام، حتّى هي تحمل بين جناحيها أمنيّة.

–من هي؟

فأجابني بصوتٍ عالٍ: هي الَّتي تركت الباء مع البراءة، حين حرموها حقوقها وتركوها تعشقُ الحجارة.

–من هي؟

هي التي تركت الشِّين حين وضعُوا فوق شمسها غربالاً يُخفي الحقيقة، وزيَّفوها وتركوها حرفاً يُنطق على الشِّفاه، مكبّلاً عند المعصمين، يُكتب على قطع القماش الأبيض. يلبث حبرهُ حينا من الزّمن، ثمّ يغسل بالماء متنكّرا من أقوال الشّعوب، فالتّاريخ يعيدُ نفسه في ثوبٍ من الحضارة، لكنّ الزّمن لا يعود للوراء، فكلّ الورى يدرك ذلك، وهي نفسها تدرك ذلك يقينا.

عاودت السّؤال مرّة أخرى: من هي؟

هي التي أمسكوا الرَّاء الهاربة منها مرات ومرات خوفا من قيودهم، وبطشهم بها، فكم من مَرّة كرّرت نداءها؟ وبنبرةٍ مُرّة: ما نحنُ إلاّ عابرو سبيل على جسور الصّبر، لا تزالُ تكابد وتقف صامدة رغم كلّ الظروف، رغم كلّ الصّعاب، فالقويّة من تُحسن قيادة مركبة الحياة.

بالله عليك قل لي: من هي؟

هي الياء التي أصابتها علّة من علل جهلهم، فأعميت أبصارهم، لأنّهم كتبوا ولم يقرؤوا، قالوا ولم يفعلوا، وبين القول والفعل سدٌّ، من أقامهُ؟ بينهم وبينها جسرٌ.

من هيَ؟

هي التاء التي ختمت على القلوب أقفالها، صمٌ، بكمٌ، عميٌ، لا أحد يسمع نداءها، الكلّ يتكلّمُ عن معاناتها، لكن لا أحد يرى مأساتها بعين البصيرة، تذرف دموعا ساخنةً ليستحموا بها، ويجعلوها مدفئة لشتائهم، فشتاؤهم قصيرٌ، شتاؤها أطول.

من هيَ؟

هي التي تبعثرت أحرفها: بـَـــ،شـَـــ،رِ،يـــَّـــ،ـــةٌ على سطح الكرة الأرضيّة، وتناثر عقدها.

إنَّها البشريّة جمعاء التي تمنّت أن يحلَّ السَّلام كلّ العالم، وأنْ لا يكون الظُّلم ظلاّ يُلاحقنا أينمَا ذهبنا، في منازلنا، في عملنا، في معاهدنا، في طرقاتنا، فما نحن إلاّ عابرو سبيل على جسور الأفعال لا على جسور الأقوال.

غفوتُ على أعتابِ أمنية وأنا أناشدُ الحلم بأحرفٍ ثقيلة تخرجُ من فمي، فحُلمنا بسيط، ألاّ يكون بيننا فقير يبيت على الطَّوى يقتات فتات الخبز الذي رماه أسير المال، وغنيٌّ نائم على الحرير، فالفقير موسيقاه صوت أمعائهِ حين الجوع، وحين الوجع، والغنّي مُوسيقاهُ تخمة ثقيلة في البطن. فلا هذا ولا ذاك يستطيعُ أن يؤدي الرَّقصة الملوية، فرقصهم في الأعراس كذبة مخفيّة، حركاتهم أسطورة لفينيق يتمرّغُ في الرّماد بعد ميلاده بطريقة خرافيَّة، رقصهم يُشبه آلة إلكترونيّة،

وابتسامتهم تُخفي ما تعْلمُهُ البشرية، لأنّ الكلّ يتألّمُ في صمت، يضحك في ملء، ينجح، يفشل، يسقط، ينهض.

فما نحن وهم إلاّ عابرو سبيل على جسور النِّسيان، هل سُمِّيتَ إنسانا لأنّك تؤنس الآخر، بل لأنّك أصبحت كثير النّسيان، تعِدُنا ثمّ تُخْلفُ وعدك، تحبّنا ثمّ تكرهنا، كيف ينقلبُ قلبك؟ لا أدري!

هكذا هو عالمي اليوم متلحف بليلٍ أسودٍ، أنتظر صبحه أن يتنفَّس، متشبّث بخيط رفيعٍ يحمله الحنين إلى موطن السّلام، فكلّما استدرنا خلفنا اشتدّ الظَّلام، نريد جرعة من البسمة لنُواصل المسير ونصل إلى محطَّتنا الأخيرة بأمان، نريد قطعةً من الأمل نُحلّي بها أيّامنا. فحتَّى تلك الأمنيّة التي كانت حُلمًا يُراودني أينما ذهبتُ قد ودَّعَتْني ذات يوم، ولم يكفِها الرَّحيل بل أخذت معها تلك الكلمات وبصيص الأمل الذي كنت أعيش من أجله، وأحلم بغدٍ تشرق شمسه.

رغم كلّ شيء ها نحن نواصل المسير، لا نملُّ لا نكلُّ، لا نحملُ معنا شيئا سوى ابتسامة ومنديل، هذه الابتسامة التي نادرا ما كانت تُفارقنا، حالِمين بعالمٍ أفضل يسوده السَّلام.

هذه أحلامُنَا بسيطة! أن أضحك مع أمّي "**عائشة**" وأتمشَّى مع خطيبتي "**ماريا**"، وأن أعمل في تربة بلادي، لا في تربة غيري، فأرضنا في كلّ يوم تنادي: أين هم أبنائي؟ أحتاج منكم أن تحملوا تُرابِي على أكفّكم وتنظروا إليه، ضعوه في كفّة الميزان، وتفحصّوه، هل يزن ذهبا أم ذهبا؟ أم أنّكم ستذهبون وتهجرونني؟ لم يفعل هذا من كان قبلكم، كانوا يستنشقون تربتي، يلعبون ويتمرّغونَ على ترابي، لم أشعر بأحلامي فقد

بدَّدها النُّعاس وداعب الكرى أجفاني وأنا أمسكُ أمنيتِي بيدي اليمين...غفوتُ...

"عمر وعابر السّبيل"

استيقظت على صياحِ الدّيك كعادتي، وعلى غير عادتي تصفَّحتُ هاتفي وإذْ بِي أجدُ أصدقائِي اتَّصلوا بي عديد المرات ليذكِّرُوني بمهمَّتنا الصباحيَّة، ثمّ فتحت صفحة "الفيْسبوك"، ابتسمتُ ابتسامةً عريضة حين بدأتُ أقرأ رسالة نصِّية من خطيبتي "**ماريا**" حقًّا تعرف كيف تأسرُ قلبِي!

-يا لها من مُراوغة!

تبعَث أشكالاً ورموزا تشتتني ثمّ تعيد ترتيبي.

قبل أن أكمل القراءة تعطَّل هذا الهاتف اللّعين، تذمَّرت وقلت:

لا شَيء جميل يكتملُ معي في هذه الحياة، ألم يقولوا أنّ زمن السّعادة قصير جدا؟ أخذتُ أغلِق الهاتفُ حينا ثمّ أفتحهُ حينا آخر حتَّى عاد إلى طبيعتهِ الأولى، فابتسمت على أمل أن تفتحَ الصَّفحة عند رسالة خطيبتي "**ماريا**" وإذا بصفحةِ الفيسبوك تقذفُنِي إلى شخص آخر يطلبُ صداقتي يستعمل اسم «**عابر سبيل**»! فتساءلتُ: إلى أين يُريد العبور؟ إلى عقلي أم إلى قلبِي؟ فليس لديَّ مكان للغرباء خُصوصًا على العالم الافتراضي، لكنَّهُ استطاع أن يجعلني أقبل صداقته. قبِلتُ صداقته على أمل أن أعرف ماذا يريدُ؟ هل سيعبرُ صفحتي بسلامٍ؟ أم أنّه إضافة إلى إضافات أخرى لا فائدة منها، هل هو متجوّل في مدينتهِ أو مهاجر مغترب أو عابر سبيل إلى المحطة الأخيرة؟ وإذ بي ألمح هذا العابر يقطع الطُّرقات، زائرا البيوت، متأملاً أحوال النَّاس، متفقدا أحوال الرعيَّة، فهمَّت بي نفسي أنَّه عمر! قلت:

-عمر، عمر، عمر!

هو الوحيد الذي خطر ببالي لأنّهُ كان يتفقّدُ أحوالَ الرَّعيّة!

بدأ الكرى يُداعب جفوني، وأنا أسأل ضميري الذي أريد أن يكون دائما مستيقظا:

أهو "**عمر**" نفسه؟

عُدت إلى النَّوم وإلى حُضنِ فراشي الدَّافئ فقد بدَّد النُّعاسُ سُؤالي، لم أشعر حتَّى أشرقت شمس الصّباح، وتسلَّلت أنوارها إلى غرفتي، ها هو فصل الصّيف يقبلُ بكلّ أطيافه، وبعمره الطّويل، أفقتُ على صوت أمِّي وهي تنادي عمر، عمر، عمر وكانت السّاعة السّابعة.

-سألتها: من عمر؟

قالت: ألا تعرفُ عمر؟

أنتَ، أنتَ...

قلتُ: لا لست أنا، بل هو عمر.

قُمت متثاقلاً، ورَميت بخطواتي إلى الحمام، تعكّر مزاجي رغم أنّ نور الشَّمس يملأ الأرض، فقد نسَجتْ بخيوطها الذّهبيّة سلاسلاً، ونسمات الهواء تُشفي العليل...

هأنذا لا أبالي بالوقت إلا أنَّه قطعني ولم يرأف بي، لماذا أفقتُ متأخرًا على غير عادتي؟ توجَّهتُ نحو مائدةِ الإفطار، تلك المائدة المستديرة على حالها، فحتَّى حصص التلفاز أصبحت موائدها مستديرة، فوقها إبريق القهوة دون حليب، فقلوبنا بيضاء، وقهوتنا بنّية، وبجانب الإبريق خبزٌ، إنّه خبز أمّي لا يزالُ ساخنًا، ومربّى المشمش يتلاعبُ بعيني، جلستُ بقرب أمّي، رأيت انزعاجًا باديًا على وجهِهَا، خاطبتني:

– ألم تسمعْ المنبّه اليوم يا "**عمر**"؟

– سمعتهُ يا أمّي لكن النُّعاس غلَبني ولم أستطع مقاومته، فأنا بشر.

الأمُّ: لقد ضيَّعت على نفسك فرصة العمر يا عمر.

–ماذا ضيَّعت يا أمّي؟ فأنَا بلاَ عُمرٍ.

الأم: نسيت أن تنهضَ من أجل أن تؤدِّي ما فُرض عليك من فوق سبع سماوات.

طأطأ "**عمر**" رأسهُ خجلاً من أمّهِ، وأخذَ يعتذرُ منها علَّها تغفر له زلّته، فهو بفعلته هذه يترك العالم يتهاوى ويسقط إلى العالم السُّفلي.

–فعلها بي هذا المنبّه مرّة أخرى سأكسرُه وأشتري مُنبّهًا أفضل منه.

–لا دخل للمنبّهِ اكسر رأسكَ أوَّلًا قبل أن تكسر المنبّه، دائما تلقونَ اللَّوم والأعذار على الأشياء التي لا تنطق.

–كُنت متعبًا يا أمّي، شعرتُ بجسمي وهو مُنكسر إلى قطع، فأنا طول اليوم أتجوّل من مكان إلى آخر باحثا عن عمل.

–لا أدري ما بكم؟ دائمًا تشتكُونَ وتتذمّرُونَ، جيل الشُّكولاتة والحلوى، جيلُ ماما وبابا.

– ألست أنت ماما يا أمّي، نحنُ الجيلُ الثَّاني وأنتم الجيلُ الأوَّل، جيلكُم غير جيلنا.

يفتحُ الابن صفحة الماضي الذي عاشتهُ أمُّه، أيّام العوز والابتسامة، أيام الحروب والنِّضال، أتراه يُريد أن يعيدَ مجد أيام الرّسائل النبيلة؟ أم أنَّها فلسفة تحتاج إلى فلسفة تنهض على أنقاض الأولى.

–نحن الجيلُ الذَّهبي يا بني، جيل يحفرُ الأرض بأناملهِ فيخرجُ من بطونهَا ما يشاء، فيعيش معزّزا مكرَّما، أمّا أنتم؛ دائما تستعملون نفس

الكلام، نفس الجمل، نفس العبارات: "نحن متعبون، مرهقون، اتركونا ننام" لا ندري بماذا حقنوكُم؟ بماءِ البحر أم بماء الغزو...

لما كُنَّا في مثل سنِّكم كُنَّا نفعل كلّ شيء ولا نتذمَّر، كُنَّا نخدمُ الأرضَ بأيدينا وأناملنا، نَحِنُّ عليها فتدرُّ علينا حليبا، وحين يأتِي فصل الرَّبيع يظهرُ بساطها الأخضر الذي يفرشُ الأرضَ عشبا، فتتغنى الأغنام والبقر فرحا وسرورا لمقدم موسم العشب، ونتسابقُ نحن النِّسوة من أجل قطفِ أنواع الزُّهور، البنفسج والأقحوان اللّذان يشفيان العليل، كنَّا نتسابقُ من يحلبُ البقر؟ من يرعى الغنم؟ واليوم تتسابقون من أجل رؤيةٍ ألعاب تافهة وتضيّعُون وقتهم الثّمين من أجلها، تعبرون جسور السّراب دون وعيٍّ منكم بحقيقة هذا السّراب. كنَّا نعيش في الرِّيف حيث الهواء النّقي لا يعكر صفونا أحد، لا عمران، لا ضجيج، هدوء تام، نتحدَّثُ مع السّنابل حين تنحني للصّياد كانحناء العابد للمولى شاكرا على النّعم.

بعدما سمع "**عمر**" كلام أمِّه صمت حينا من الزّمن ثمّ ردَّ عليها:

– اليوم نحن في عصر المعلوماتيّة يا أمِّي، عصر السُّرعة.

–عن أيّ معلوماتيّة تتحدّث؟ تحفظونها ألفاظا ومصطلحات، تستوردونها قطعا، تبثُّونها روحكم الضّائعة، ماذا فعلتم بِها لبلادكم؟

– إنّها لغة العصر يا أمِّي.

–أظنّها لغة الخشب تشبهكُم تمامًا يا بني، لأنّكم أصبحتم تشبهون الآلة المبرمجة، تستيقظونَ على لمسةِ الهاتف النَّقال وتنامون على لمستهِ للمرّة الألف، أخشى عليكم من شحناتهِ الكهربائيَّة التي تسلبُ منكم طاقتكم الشَّبابيَّة، كنّا نستيقظ ونطبعُ قبلةً على رأسِ الأمّهات والآباء

ولمسة من أيديهم، فتظهر الابتسامة على محيّاهم، فتحلّ البركة في يومنا كلّه من أوّله إلى آخره، وأنتم تأخذون بركتكم من آلة، تفتحُونَ عُيونكم عليها، هل عدتم إلى عصر الجاهليَّة؟ كلّما نظرنا إليكم تعجَّبنا من حالكم يا عمر! نجلسُ معكم، الجسد حاضر والعقل غائب! أدمنهُ ذلك الهاتف اللَّعين الذي حرمنا حتَّى الكلام معكم.

يردّ "**عمر**" على أمِّه بنبرة خافتة.

–هذا الهاتف هو الذي يجعلني على تواصل معك عندما أكونُ خارجَ المنزِل، هأنذا أتكلّم معك يا أمِّي وجها لوجه.

–تتكلّم معي، بل هي بضع كلمات تبلّلون بها أذاننا في اليوم.

تتنهّد الأمّ وتتذكّر ما قالته جارتها "بلقيس":

– إيه...، فقد حدّثتني جارتي "**بلقيس**" عن أبنائها، أدهشتني بما قالت.

– ماذا قالت يا أمّي؟ فأنا أعرفهم.

–أخبرتني أنّها لا تكاد تجتمع بهم في اليوم، أو بالكاد تراهم حين يدخلون ويخرجون من أجل الطّعام، وفي بعض الأحيان يأكلون خارجا، كأنّهم ضيوف، يا للعجب! أصبح البيت موحش.

عمر: هه، هه

ذكَّرتني بما قاله ذلك الكوميدي في مسرحيته الغابرة: «دخلا خرجا» وهو يعيدها آلاف المرات.

–تقطّع قلبي لحالها يا بني، حين فتحت لي قلبها، وتركت جرحها ينزف ويخبرني عن انشغال أبنائها عنها، شغلتهم هذه التّكنولوجيا الجديدة، فرغم أنّهم أربعة شبان وفتاة، إلاّ أنّها تشعر أنّهم أربع آلات

مبرمجة للدخول والخروج، كأنّها خادمة فقط، تطبخ لهم وتغسل لهم ملابسهم، يطلبونها حين يحتاجونها، ونسوا أنّها بحاجة إليهم.

-من يفهمها؟

-من يشعرُ بها؟

-من يطلّق جهازه تطليقة واحدة ويعيده بعدما يجالسها لساعات وساعات.

حقاً إنّها خطيئة عصرية!

أخبرتني أنَّهم يجلسُون مع بعضهم في صالة الضُّيوف كأنَّهم ضيوفٌ، وإذا التقى الضُّيوف مع الضّيوف فمن يُكرمهم؟ ويُحسن ضيافتهم، فالكلُّ منشغل بهاتفهِ النّقال، حتّى أنَّهم يتراسلون في المنزلِ الواحدِ عبر رسائل الماسنجر، لا يكلّمون بعضهم البعض، وأنا جالسة أنظر إليهم وأحدّث نفسي عن حنين يعاودني آلاف المرّات في اليوم:

لقد منحتهم كل وقتي كلّ لحظة من حياتي، عندما كانوا رُضعًا منحتهم ابتسامتي، حينما خطوا خطواتهم الأولى، حينما نطقوا بأوّل حرفٍ طِرْتُ فرحا وحلقت في سماء الأمل، حينما ذهبت معهم إلى المدرسة، ويدي تمسك أيديهم الصّغيرة والمرتعشة من البرد، أمسك أيديهم الصّغيرة وأخرج كلّ هواءٍ ساخنٍ من رئتي وأدفئهم به، وأحكّ يدي على أيديهم، لا أرتاح حتّى أرى السعادة في وجوههم، وها أنا اليوم أتسوّل نظرة من عيونهم الهاربة حتّى من وجوههم، وأتسوّل دقيقة من وقتهم.

تأثَّر "عُمر" بكلام أمّه وهو ينظر إليها، اغرورقت عيناه بالدّموع، خانه لسانه ولم تخنه المشاعر... أمسكت الأمُّ أذُنَ "عمر" وضغطّت

عليها ضغطا قويا وقالت: إيّاك أن تفعل ذلك معي وإلاّ قتلتك أيّها المشاكس.

يصرخ "عمر" من شدّة الألم:

آيْ؛ تحمرّ أذنه، فتمسح عليها الأمّ بكلتا يديها مسحة يملأها الحنان.

حينها أدرك "**عمر**" حُبّ أمّه وخوفها من خسارته يومًا، فأمسكَ يدها وقبّلها حتّى يطمئنَّ قلبها، وأخذ يكلّمها بعدما سمع نداء خوفها عليه، مشاعرها.

تبدَّدَ خوفُ الأمِّ وقلقهَا من أن يفعل ابنها ما يفعله أبناء الجيران بأمِّهم دون إدراك منهم، لكن متَّى تدرك الرّوح هذه المعاناة؟ فالرُّوح هي وحدها من سيعبر ويبقى الطّين محلّ وجوده، متّى يُدركون أنّهم يعبرون جسرهم دون أمّهم؟ لأنَّهَا سترحل في غفلة منهم، فالعمر ورقة لا ندري متى تسقط؟ وإذا انتقلت إلى محطتها الأخيرة وعبرت جسرها بسلام، فلا هاتف بينكم وبينها، متَّى سيدركون ذلك؟ فالأمنيات لا تزال معلّقة فوق الجسور، بعضها يحلّق إلى مكان تحقيقها، فترى البريق في عيني صاحبها، وبعض الأمنيات تبقى تتأرجح بين اليوم والغد ويتيه أصحابها.

بعدها ابتسم "**عمر**" في وجه أمِّهِ، وهو يخفي آلامًا وأوجاعًا أحْيَتْهَا بحديثها، ثمّ أخذ يرتشفُ فنجان قهوة معطّرة، وحين حمل الكأس بيده أخذَ يستنشقُ عبق ماء الزَهر الذي يفوح منها، وينظر إلى لون القهوة ولَمَعانِها وهو يرى ملامح مُحيّاه داخل الفنجان، يفيض منه عنفوان

الشَّباب، وملامح الرُّجولة بارزة حين يقطّب حاجبيه، وينظر إلى ثيابه الأنيقة التي ارتداها، ثمّ أخذ يسألُ نفسهُ بصوتٍ مسموع: من هذا؟

ونسيَ أنَّ أمّه بجانبه وتشاركهُ فطور الصَّباح.

استغربت الأمُّ من ابنها وقالت: أنت عمر.

عمر: هذا ليس عمر...

قَصَةُ شعرٍ غريبه، لم يورّثها لي جدّي ولا أبي! أفقت على صياح الدِّيك، وهأنذا أستعير منه قَصَّته الغريبة وأستعير من الحياة قصصا، لم تعد ترويها لنا الجدّات، تلك الرّيشات المرتفعة إلى السَّماء، ممتزجة ألوانها بُصفرة، هي أمنيّة راودتني، تمنّيت لو كنت مثله استيقظت باكرا وقمت بمهمّتي كما يقوم بها هو، لكنّي لم أستعر منه استيقاظه باكرا، وقيامه بما كلِّف به يوميا، أظنُّ أنّه أفضل منّي.

رنّ الهاتف " تن، تن، تن"...

نظرت فوجدت وجه جميلتي، أخذ قلبي ينبض ويزداد شوقا لرؤيتها، تركت الهاتف على السَّرير وأسرعت إلى النّافذة فتحتها بسرعة البرق لأستنشق عطر الحبّ، وإذا بعطرها يتسلّلُ إلى غرفتي، لأرى، ماذا أرى؟

لمحت حبيبتي فتُهت في رمال شعرها! ضِعتُ بين النّظر والكلام، تبعثرت!

من يلملمني؟... وأعلنت للحبّ معركة دون سلاح، أستسلم فيها حين أقارب أنفاسها، وتختلج أنفاسي حين أصبح تحت وطأة عيونها.

لم أعرف أأنظر إلى الشَّمسِ أم إلى شمسيّ؟ تلاقت النّظرات طلَّقنا الكلام تطليقة واحدة إلى حين أن نسترجع أنفاسنا، وأطلقنا العنان للّغة الإشارات، فالكلام في حضرة الحبّ ممنوع، ابتسامتها بلور يأسرني،

ثملت حتَّى النُّخاع دون شراب، دون كؤوس، أخذت جرعة زائدة من الشَّغف فحبّها يحرقني ويرمي بأوراقي للهواء، تتطاير يمينا وشمالاً، يتناثر حبّنا ليشّكل أروع قصص الحبّ، إنّه حبّ لا يعرف الحدود، تعبر قلبي دون تأشيرة، تستوطنني، وتستحكم أسواري، تغتصب أرضي حباً...

أشارت بأصبعها الرَّقيق إلى الأسفل، فلمع خاتم الذّهب، فذهبت معها كلّ مشاعري، لم أفهم شيئا، حركت رأسي يميناً وشمالاً، فقالت:

– هو... هنا.

فعرفتُ أنّهُ أخوها المجنون، ودَّعتها بإشارة من يدِي وأغلقتُ النَّافذة بسرعة، لازلنا نسرق النّظر، كما تسرق منّا اللحظات السّعيدة.

مررتُ على أمّي في مطبخِهَا وطبعتُ على جبينها قُبْلَة لأجتاز كلّ صعوبات اليوم، فقَابلتْ قُبلتي بابتسامةٍ، فكلُّ الأوراقِ تحتاجُ إلى ختمِ المسؤولِ، إلى ختم المديرِ، إلاَّ أنا أحتاج لقبلةٍ من أمّي، هذه عادتي استهلَّ يومي بختم قبلةٍ على جبين أمّي، لتكون جواز سفري أعبرُ بهِ كلّ القلوب، كلّ الطّرقات، كلَّ الصّعاب، ثمَّ خرجت مسرعا والنّشاط يملأ قلبي وعقلي.

أستنشق الهواء النّقي قبل أن يعكّرَ بأعمالنا وأفعالنا، ضحك منّي "مصطفاي" فلكلّ شخص منّا مصطفاه أي ضميره الذي يوجّهه، وقال:

–هههه!

لو نهضت باكرًا لحُقَّ لكَ أن تقولَ هذا، لو نهضتَ قبل شروق الشَّمس وتمشيتَ إلى بيتِ العبادة لاستنشقت هواءً طاهرا، لست أوّل

واحد خرق ناموس هذا الكون بفعلتهِ، فكيف ستعبر على جسر كسَرتَ إحدى لبناته؟

"أمنيّةٌ حبيسةُ الورق"

واصلتُ طريقِي والابتسامة تملأُ وجهِي، فالابتسامة جواز سفر مجانِي لعبُورِ القلوبِ، مررتُ على محلِّ بائعِ الكعكِ، لقدْ أخذتني رائحتهُ الزَّكيّة وجرّتني إلى الدُّكان جرًّا. مَددتُ بصرِي على خمسة أمتار، فرأيتُ ابن الجيرانِ "**أسعد**" إنَّهُ صديق الطُّفولةِ درس معي الابتدائي، المتوسط، الثَّانوي، الجامعة؛ ثمّ قذفونا لمواجهةِ الحياةِ.

كُنت أظن أنّ المعركة حرب وتنتهي بأخذ الحرية، لكنّي أدركت أنّ معركتنا مع الحياة لا تنته حتّى نعبر عبر جسور أفعالنا، على الظلم والغش لن نعبر، على المصلحة والمعارف لن نعبر، عبر الصَّبر سنعبر مثلما فعل صديقي "**أسعد**" الذي لم يسعفهُ الحظّ يومًا ويواصل الدّراسة، كان صديقي، لكنَّ الحظ لم يكن يومًا صديقا له. لو كان الحظُّ إنسانا لتَرجَّيْته أن يبتسمَ لهُ ولو مرّة، لكن هيهات! هيهات أن تسمعنا الأمنيات! فمن يُعيل أمَّه وأبوه الشّيخ الكبير الطّاعن في السنّ وأخواته البنات؟ في كلّ يوم أمرّ عليه أراه وهو يجرُّ عربته الخشبيّة ويضعها أمام المبنى الكبير للسكّان، كلّما نظرت إليه تظنّ أنّه يملك الدنيا بابتسامته التي يوزّعُها على المارّة في كلّ صباح، كأنّه يبشّرهم بقدوم غدٍ أفضل، ليت كلّ النّاس مثلك يا "**أسعد**" تسعد النَّاس بكلامك الطيّب وبابتسامتك التي لو وزّعت على شباب الأرض لأغنتهم يقينا أنَّ الرزَّاق واحد فوق السَّماء، فلا تبتئس. ما عليكَ إلاَّ أن ترفع يديك إلى السَّماء وترسل كلماتك لتخترق الحجب ليلاً، فاللَّيل

لا ضوضاء فيه، فهو السُّكون والهدوء، فالرُّوح حينها تشعر بوجودها وموجودها، بكيانها الذي يتشتت في وضح النّهار.

أدركتُ حقيقة المقولة: « **أَسْعَدُ النَّاس من أسعَدَ النَّاس**»، وأنت يا "**أسعد**" اسم على مسمَّى.

اقتربتُ منهُ من أجل تحيَّتِهِ.

ها هو يستعطفُنِي من أجلِ شراء حبَّات الكعك منه، يخاطبُنِي:

-أهلاً يا عمر، كيف أصبحت خالتِي اليوم؟

- أهلاً يا صديقِي "**أسعد**"، خالتُكَ بخير، أصبحتْ على سيرةِ الجيل الذَّهبِي.

-اشتقتُ إلى ذلك الجيل، أين هو؟ وكيف انّحى واندثر؟ أتوق إلى أبناء جيلنا وإلى أيامنا الجميلة التي قضيناها مع بعضنا ومع أصدقائنا يا صاحبي عمر.

-كم كعكة تريدُ يا عمر؟

-لا أستطيع شراء الكعك لأنّي مستعجل جدا ووقتي ضيّق؛ أريد أن ألتحق بأصدقائنا، فقد اتّفقنا اليوم أن نعبر الجسور وننثر عليها الأمنيات لعلّها تتحقّق.

-أتستطيعُ أن تقاومَ رائحةَ كعكي الزّكيّة يا "عمر"؟

-لا يا صديقي لكن ما تعوَّدت أن آكل كعكة بدون أمّي، فمعدَتي تلفظُها إلى الخارج، ولا أريد أن أعاني مغاصًا طوال اليوم.

يردُّ عليه صديقه البائع أسعد:

-غريب أنت يا عمر! ما هي إلاّ كعكة، خذها مجانا لا بأس، أظنّك لا تملك مالاً في جيبك، الكلّ يعاني من التقشُّف هذه الأيام.

-ليس هذا يا صديقي.

يستعطف البائع عمر كعادتهِ:

- إنَّها من صُنع يَديْ عمتّك "**زهرة**"، فهذه الكعكة لم تصنعها آلة حديديَّة، فلا تخفْ على قلبكَ أن يصبحَ يومًا من حديد، إنَّها من صُنع كفَّيْ عمّتك، لقد لامست هذه الكعكة أيدي البركة...

لم أجد ما أفعل عدتُ أكلّم نفسي وأسأل ضميري لأنَّهُ استعطَفني بهذا الكلام، ضغطتُ بأسناني السّفلى على شفاهي العليا وبدأتُ أكلّم نفسي:

-هل أشتري؟

وقعتُ في حيرةٍ من أمرِي، نظرتُ إلى أعلى، ومن حسن حظِّي رأيت أمِّي تنظرُ إليّ من النَّافذة وتبتسم.

-آه؛ الحمد لله، أشرتُ إليها بيدي اليُمنى أن تعالي من أجل أخذ الكعك.

أخذت أتجاذب أطراف الحديث مع صديقي "**أسعد**"، ريثما تنزل أمّي إلى أسفل، وأنظر إليه كيف يتعامل مع زبائنه ويحيّيهم؟ كيف يأسر قلوبهم بحديثه الشّيّق؟! وأختلس النّظر مرّة أخرى إلى عينيه، ماذا تخفيان؟

ألم وحسرة، فدولة الحزن تُقيم عندهُ رغم ما يهبهُ من ابتسامةٍ لعابري السَّبيل الذين يشترونَ من عنده حبَّات الكعك التي لا تقاوم، فقد كان يحلم أنْ يكون رائد فضاء يرفعُ علم بلاده في كوكب غير كوكبنا، وفي عالم غير عالمنا، لكنَّ الأيَّام لم تبتسم له، لكنَّها رغم ذلك تركت له الابتسامة هدية حتَّى يهبها للآخرين، ليعبر بها إلى قلوبهم.

ها هو اليوم يرى أحلامهُ تودِّعهُ إلى غير رجعةٍ، ويراها قطعًا أمام عينيهِ فوق العربة الخشبيّة كقطع الكعك، لكنّهُ كان متأكدًا أنّ حبّات الكعك التي كانت أمّهُ تتعب في تشكِيلِها وطَهيِهَا، هي السّبيل الذي سيَهبهُ مفاجأة الحياة، أو هي الجسر الذي سيعبرُ منه بسلام.

نظر إليَّ صديقي "**أسعد**" نظرة حسرة تملؤهَا خيبات الأمل، وبتلك النّظرة التي قطَّعت قلبي شعرتُ به يُمرِّرُ لي ألفَ رسالة ورسالة، وكأنّهُ يقول لي:

– ما أردتُ أن أكون بائعًا، ولكنَّ القدر أراد ذلك، وهأنذا أمتثلُ لقدري.

قال لي بحصافة: أتذكرُ يا "**عمر**" حين سألنا معلِّمنا عن أهدافنا، عن أحلامنا التي ننسجُ خيوطها منذ الصِّغر في الحياة، لتصبح في شبابنا بِساطًا نمشي عليه ونفتخر، حين سألنَا عن سُلَّم الطموح؟ هذا السُّلم الذي لازلت جالسًا على عتبتهِ الأولى! كأنِّي مشلول أنتظر من يحملنِي؟ من يحمل عنّي همُومِي؟ مَنْ يأخذُ بيدي لأصعد؟ والسُّؤال نفسه الذي لا يزال واقفًا منذ الأزل ينتظرُ إجابة، ينتظر أن يجلس على مائدة العقلاء:

–لماذا يأخذونَ بيد الشَّخص الذي في القمّة، ويتركونَ الشَّخص الذي في بداية السُّلم يصعدُ على الشَّوك؟! يحدّقون به طويلاً أثناء كلّ خيبة، كلّ عثرة، كلّ سقوط، لكنّه رغم نظراتهم التي تذهبُ إلى الأرض ونظرتهُ التي تذهب إلى الأعلى فرق لا يدركه إلاَّ العارفون، لا يزال الكثير منهم ينظرُ إليه وهو يُكابدُ الصُّعود، هو لا يريد أن يراه العالم ليصفِّقُوا على شعلتهِ برهةً ثمّ ينطفئ نورهُ، بل يريد أن يرى هو العالم

حين وصل القمة ماذا فعل؟ أكيد أنَّه سيتدحرجُ، فكلّ شيء إذا ما تمَّ نقصانُ.

يتذكّر "**عمر**" كلّ ما قالهُ معلّمهم، لكنّه يدَّعي أنَّهُ لا يتذكَّر، ويترك ضجيج الذّكريات يُحدِثُ فوضى داخلهُ، حتّى لا يزيد من اشتعالِ لهيب حزن "**أسعد**"، يجُّمدُ دموعهُ حتَّى يبتعدَ عن صديقهِ ويتركها أوديّة تسيل إلى غير مستقر، تبحثُ عن مكان لتتجمَّعَ فيه وتشكِّل بُحيرة الأحزان، نزُورهَا كلَّما هزَّنا الشَّوق والحنين للبكاء.

يُذكِّر "**أسعد**" صديقه "عمر" بما كان يقولهُ المعلّم عنه، فكلام المعلِّمين يُنقش بالذاكرة؟:

نعم يا "**أسعد**" أذكر أنّك التلميذ الوحيد الذي كان يجلس مُعتدلاً، كنت في كلّ مرّة تحضر مشروعًا، وأفكارا تفوقُ أترابك، فالأفكار عندكَ كانت بالمزاد، وأتذكَّر جيّدا مقولةَ المعلّم في ذلك القسم البسيط الذي كنّا نزيّنه بأحلامنا وآمالنا.

كان المعلّم يقول لنا:

– أتعجَّبُ لهذا التِّلميذ يُحاول أن يخترق العالم بفكرهِ في حين أنّه يملك ورقةً وقلمًا وحلما، ماذا لو أكمل تعليمه؟! سيخترق الفضاء لا محال.

–أتذكر حين وضع لنا المعلِّم أحلامنا في الحياة أمامنا على الطاولات التي كنَّا ندرس عليها، ووضع لنا صُورا وكلّ صورة تعبّر عن وظائفنا التي كنّا نحلم بها منذ صغرنا، فالأحلام كانت متاحة لنا، أمّا الغد فنجهله كجهلنا لذاتنا.

كم هي جميلة تلك البطاقات؟! كم هي جميلة تلك الصُّور التي كانت تحمل أحلامنا؟! ربّما تحقّقت أحلام البعض، إلاّ حُلمِي بقيَ مكتوبًا على ورقةٍ بيضاء بحبرِ القدر، وشاء القدر أن يرسمَ لي حياة لم أرسم معالمها بعد.

يستعد "أسعد" شريط ذكرياتهِ في "**متوسطة ابن زيدون بالجزائر**" التي درس بهَا، وقد اغرورقت عيناه بالدُّموع، فالذي اختار أن يكون طيَّارا كصديقنا "**حسان**" وضع لهُ صورة طيَّار يقود طائرة، فطار فرحا حين رأى صورته وهو يرتدي البدلة الرسميّة لقائد الطائرة، كأنَّه طائر يحلّق في سماء الأحلام، كم هو جميل ذلك الحلم حين تحقّق؟! والأجمل من ذلك كلّه أن تكبر ويكبر حلمك معك، كلّ الأحلام كبرت إلاّ حلمي عانق الورق وبقيَ وفيًّا لهُ، والتي اختارت أن تكون طبيبة بيطرية وضع لها صورة رائعة لحيوانات أليفة وهي"**بسملة**" تلك الفتاة الشّجاعة التي تعشق أستاذتها، وتقبّلها في كلّ يوم، نعم إنَّها التلميذة التي ردّت يوما على مديرها بكلمة فبُهِتَ لردّها الذّكي والجريء عليه، حين قال لهم:

– لا تخبرُوا أحدًا على اتّفاقنا وأمالَ بعينيهِ إلى أستاذتهم "**أمال**"، والأستاذة تسمع ولا تدري ما الاتّفاق؟ فقالت له "**بسملة**":

–وهل تستطيع يا سيّدي المدير أن تُخفيَ على أمِّك أمرا؟

قال لها المدير: طبعا لا أخفي على أمِّي أمرا.

–إذن، كيف تطلب منَّا أن نخفيَ الأمر على أمّنا الثانيّة...

حينما تتحدّث البراءة، يرتسم الصّدق على شفتيها ويتلاشى النِّفاق، ويصبح للمحبة والعاطفة أريج ينثر عطره في كل مكان من هذا

العالم، فيَسْتَنْشقه الواقع قدرا محتوما، و"فاطمة" التي اختارت أن تكون طبيبة القلب، فكلّ القلوب في رأيها أصبحت معلولةً، ومن أجل أن تكبر وتعالج جراح أمّها التي تركها أبوها حين تركها وأمّها لوحدهما يقاسيان ظلم الحياة وقهرها، ولم أنس يوما حين أخبرتنا عن معاناة أمّها مع أبيها، وبحرقة ومرارة أخذت تعيد كلام أبيها، كأنّها تريد أن تلفظ جراثيما اخترقت قلبها وجسمها النّحيل، تريد أن تلفظها خارجا لكي تستطيع العبور إلى ذاتها تحتاج أن تخرج ما بذاتها من ألم:

-كان يقول لها بغضبٍ وهو يُحرك يديه هنا وهناك، خذي واقرئي ما بهذه الأوراق من كلام يقتلعُ جُذوركَ من بيتي وحياتي، حمَلت أمِّي تلك الأوراق وهي ترتجفُ خوفا وعيناها كانتا تقرأ الكلام، انقطعت أنفاسي وأنا أختلس النّظر من باب غرفتي، كان صَمْتُ أمّي يُخبرني بكلِّ شيء، معاناتها مع أبي السكّير الذي يبذِّر أمواله في القمار، ويعود ليلاً من أجل ضربها وأخذ كلّ ذهبها وأموالها ليبيعها، لم يترك لها شيئا جميلاً، فقد كنت أقرأ الحزن على قسمات وجهها، حين الفجر وحين المغيب.

توقّفت يداها عن الارتجاف فأحسست بقلبها وهو يحترق رغم ما غاب عنها من كلام...

كانت تبكي وهي تتألّم، فأنا ما زلت أتذكَّر ذلك البكاء وذلك الألم وكلّ قطرة دمع نزلت من عينيها، بلَّلت قلبي المنكسر...

أكلّ الأمّهات لا تنتهي معاناتهنّ؟ زمن الأنوثة ما زال يرثي نفسه، أهي خطيئة جاهليّة مازلنا ندفع ثمنها؟ أم أنّها عادة رجوليّة في زمن الأنوثة العصريّة؟

لم يتوقّف "أسعد" عن سرد عن هذه الذّكريات، يواصل...

– أتراه نسي الكعك والزّبائن؟

–لا؛ فما يزيد من مرارته الدّكان الذي بجانبهِ دكّان فاخر، يفضّلهُ بعض المارّة على عربته البسيطة، ولعلَّ هذا ما جعل "**أسعد**" يُخرجُ كلّ ما في جعبتهِ اليوم وعلى غير عادته...

ما زلتُ أذكرُ صديقتنا "**حياة**" التي اختارت أن تكون طبيبة عيون، لا من أجل أن تداوي العيون، بل من أجل أن تقرأ ما في العيون من رسائل حبّ جنونيّة تعتلي صهوة الحصان حين تكبح جماح الحقّ في عينيهِ، من رسائل الحبّ المقيّد المكتوم بين فكّي اللّسان...

حبّ لا تترجمه الكلمات، لا تحتويه السُّطور، حبّ تترجمه لغة العيون عبر جسور العاطفة والمشاعر والأحاسيس الجيّاشة، فلغة العيون هي اللغة الوحيدة الذي تظهر جمال وقبح العالم...

فدعونا نتوقَّفُ لبرهةٍ ونقرأ ما في مرآة العيون من بياض ثلجٍ، من سوادٍ ليل هادئ يخفي آلاف الألغاز، من اخضرار عشب، من زرقة بحر اغرقت الكثير من العشّاق...

دعونَا نقرأ ما في مرآة العيونِ من حقدٍ، من مكيدة، من هيام، من ضياع، فالعيون هي المرآة التي لا تجعلك تشيخ صالحة لكلّ زمن ووقت...هكذا هي العيون سهام الحبّ الأولى...

يتنهّد البائع في كلّ مرّة يذكر فيها أمنيات أصدقائه التي تحقّقت، تنهيدة اقتلعت جُذوري، فقد أحييت لهُ ماضيه الدّفين، ومن منّا ليس له ماضٍ يستفزّه بين الفينة والأخرى؟ يستفزُّهُ حين اللّقاء وحين العناق...

فبعض الأمنيات بقيَتْ معلّقة بالجسور، وبعض الأمنيات بقيت حبيسة الورق، يواصلُ "أسعد" كلامه ويُعيد شريط ذكرياته، يعيده بمرارة وحرقة كبيرتين.

– **أماني** التي وضعَ لها جملاً بكلّ اللّغات لأنّها تمنّت أن تكون مترجمةً عالميّة، وحينما خاطبها معلّمنا وسألها:

– لماذا تريدين أن تكوني مترجمةً؟

ردّت عليه وبكلّ ثقة:

سأتعلّم كلّ اللُّغات من أجل أن تكون لي سلمًا أصعد عليه كلّ الجسور وأعلّق علم لغتي، لترفرف عاليًا، وتحلّق عبر لسان كلّ طير، فالجسور هي المكان المفضّل للطّيور...

سأكتب على الجسر:

عَرَبِيَّةٌ إِذْمَا اسْتَنْشَقْتَ حُرُوفَهَا يَتَنَاثَرُ العِطرُ أَثْمَـانُهُ غَالِيَه

بُسْتَانُهَا نُورٌ مِنَ الرَّحْمَانِ عمَّ والضَّادُ بَابٌ لِلْقُطُوفِ الدّانِيَه

فصفّقَ عليها جميعنَا فرحًا وبهجةً لأنّها تحملُ رسالة وهي صغيرة السنّ لا يحملها حتَّى الكبار، تريد أن تكون سفيرة للعربيّة في كلّ مكان.

هذهِ هي أحلامنا وأمنياتنا نحملهَا باليمينِ، تشبهُ ذلك الطِّفل الرَّضيع، تنمو وتكبر كلّما سَقيْنَاهَا بجهدنا ومثابرتنا، تبقى مع البعض صغيرة إذا ما أهملوها، وتكبرُ مع البعض الآخر إذا ما اعتنوا بها، ويبقى الفاصل الحاسم في تحقيقها جسور تنتظر من يعبرها.

****

يُلاحظ "**عمر**" تغيُّر ملامح "**أسعد**" حين تحدّث عن "**أماني**"، وشعر أنّ هناك بقايا الحنين إليها، فهو لا يزال متشبّثا بخيط الأمل.

توقّف "**أسعد**" هُنَيْهَةً، وسأل "**عمر**" عن بقية حلم لايزال يناشدهُ في هذه الحياة:

– ألا تعرف أخبارها يا "عمر"؟ كيف هي "**أماني**"؟

أتمنَّى أن ألتقيَ بها يا صديقِي، فأنا لا أجدُ الوقتَ من أجل أن أبحثُ عن أصدقائي، فمشاغل الحياة شغلتني حتّى عن حياتي.

عمر:

لا بأس عليك، أنا اليوم على موعد مع بعض أصدقائنا ربّما يعرفون أخبارها.

–سأتّفقُ معهم اليوم ونلتقي كلنّا في يومٍ واحد نبحثُ فيهِ عن أصدقائنا الذينَ كانوا يدرسونَ معنا، ونستعيد مجد ذكرياتنا.

–سأكون ممنونًا لك يا "**عمر**"، فقط أخبرني بيومٍ قبل ذهابنا حتَّى لا أخرج عربتي الخشبيَّة، وأكتب لزبائني أنّي سأكون غائبا حتَّى لا ينتظروني، ويستطيعوا الشِّراء من المحلّ الذي بجانبِي.

–حاضر يا صديقي، الآن دعني أذهب.

ما كاد "**عمر**" يختفِي حتَّى اشتعل الشَّوق في قلب "**أسعد**" لأصدقائهِ، ولما رأى خالته أمّ "عمر" نزلت لأخذ الكعك قال لها:

–خُذِي الكعك واتركِي العربةَ الخشبيَّة عند صاحبِ المحلِّ المجاور وذهبَ مسرعًا وهو يُنادي: **عمر، عمر** خُذني معك. خذني معك. يُناشد أملاً لعلّهُ يعود في قطعة من الحظّ تُحلِّي حياته.

–دعني أبحث عن ذاتي، دعنا نعبر جسور حاضرنا عبر ماضينا الذي لا يتركنا نعيشُ بسلام...

التحق "أسعد" "**بعمر**" لعلّه يعيش عمرا جديدا وأخذا يردِّدان:

– سنعبرُ كلّ الجسور، سنعبر كلّ الطّرقات، فاتركُونَا نعيشُ بسلامٍ... ونلتقي على جسورِ الصَّداقة بحثا عن حلم تبقّى، أناشده على الرَّصيف، أناشدهُ في وجهِ "حوَّاء" إذا مرَّت علّنِي ألتقي بشخص يُشبههَا، فكلّ الوجوه تتشابه لكنَّ الأقنعة تختلف من شخصٍ لشخص.

أدرك "**عمر**" أنّ رحلتهم في هذا اليوم ستكونُ أطول من ألفِ سنة، والبحث عن "**أماني**" في مدينة كبيرة كالبحث على إبرة في كومة قشٍ!

"الأنوثة الهوجاء"

بَدأت رحلتنَا؛ وقفنَا عند محطَّةِ الحافلةِ على السَّاعةِ الثَّامنةِ، ننتظر قدومها بلهفةٍ، وإذ بي أقف بجانب حوّاء فاتنة، تجمّلت بأطياف قوس قزح، واستعارت من الشَّمس لون شعرها، ومن اللّيلِ سواد العيون، ومن الهلال أخذت شكلاً لحاجبيها، لكنَّها لم تحجب جمالها، لمحتني انظرُ إليها في خفيَّة، فازدادت أنفةً وغرورا، إنّها الأنوثة وخليلها الكيدُ...

تأخَّرت الحافلة، السَّاعة التَّاسعة تماما.

بدأَتْ ألوان المساحيق تفترُ، والشَّمس تستعيد اسمها المستعار، أخرجت الفتاة مرآة، نظرَتْ إلى وجهِهَا، وأضافت المساحِيق على المِساحيق، فسحقَتْ الجمال الحقيقي بألوان لا نعرف من أين أتت بها؟ لا نعرفُ ماذا فيها؟ أصُنِعَتْ من عسل النَّحل أم من رذاذ الخنزير فزيَّفت الجمال الطبيعي ومسحت عن وجهها ماء الحياء الذي كان يبعث النّور في الأنوثة، أمّا صوتها فعرَّته وتركته يصدح في العراء، وأمّا ضحكاتها المستهترة فقد وزّعتها على المارّة بالمجان.

فلماذا نرفعُ دائما شِعارات الحقيقة، وفي بعضِ الأحيان نجدها غائبةً، نكتبُهَا على لون الأكفان؟ أليس هذا القماش الأبيض هو الحقيقة الوحيدة التي سوف نزّف بها إلى محطّتنا الأخيرة؟

ثمَّ نظرت إليَّ خفيَّة حتَّى تعرف إذا كنت أنظر إليها، خاطبتها:

– لماذا تزيّفون الحقيقة؟

فضحت وقهقهت...

تعجّبتُ من استهزائِهَا، ثمَّ قالت:

-عن أيِّ حقيقة تتحدَّث؟

وهي تتحدَّثُ بلغةٍ لا هي عربيَّة ولا هي أجنبية... أضافت القهوة على اللَّبن، فمن يشربُ؟ سألتهَا:

- أأنتَ أجنبيه؟

قالت: أجنبيه! وابتسمت وهي تتمايلُ كالمرأة الشَّموع.

فظهر البلور والماس، فتعجبت وسألت نفسي: أيظهرُ البلور للعيان؟ أراهُم دائما يضعونهُ في علب زجاجيّة شفّافة ويضعون حوله حراسا من أجل حراسته.

-كأنِّي قلتُ لها: أأنت ملكة جمال العالم؟

قالت: لا لست أجنبيه، وقالتها بتذمُّر.

- أنا عربيه

قلت: اعذريني، غرَّني لسانُك ثمَّ لباسك، فاستبعدت أن تكوني عربيه، فحتّى عطرك ليس لك؟

قالت: حضارية أنا.

قلتُ: حضارية!

إذا كنت أنت حضارية، فمن نحن؟

وماذا تعني لك الحضارة؟

لم تجد إجابة واضحة، ثمُّ أخرجت المرآة للمرَّة الألف، ونظرت إلى وجهها، كأنَّها تأخذ جرعة دواء إضافية، أردت أن أستفزّ أنوثتها المخفيّة فقلت لها:

- لو رأت المرآة حقيقتك لانكسرت.

ردَّت دون خجل:

– بل أنتَ الذي انكسر من جمالي، فلماذا تختبئ وراء كلماتك كأنّك فيلسوف زمانك.

قلت لها: مضى زمن الفلاسفة يا فتاة.

الفتاة: أرسطو وأفلاطون...

عمر: بل الفرابي وابن سينا وابن رشد.

كان "**أسعد**" صامتًا لا يعلّق على كلام الفتاة، فهذا النَّوع لا يستهويهِ أبدا.

إنّها الأنوثة الهوجاء! التي لا تعرف هدوءًا ولا سكونا إلاَّ حين تسكن على صدر آدم، هذه هي حواء، قوارير لم تمتلئ خمرا، سهل كسرها بعد السُّكْرِ، بعد النّشوة، صعب جبرها، فهي قطعة سكرٍ تذوب بكلام طيّبٍ، هذه هي قارورة العطر التي لا تجفّ أبدا، ولا يستطيعُ آدم أن يستغنيَ عن هذا العطر الذي يعيش مع نفَسِه.

ربَّما بقيت في الحكايات والروايات تقتات من الحروف، وترتوي من حبر الحبّ، وتسكن لُبّ كلّ عنيد، وتترك ما بين السّطور يقرأه الذّكور...آه منكم.

في ذلك الوقت وصلت الحافلة، لم يكتمل الحديث، فكثير من الأحاديث لم تكتمل. ركبنا الحافلة، هذا يدفع هذا، الكلُّ يتسابق إلى الرّكوب أولاً، إلاّ شيء واحد لا نتسابق عليه، الحافلة التي تأخذها إلى المحطة الأخيرة من حياتنا، امتلأت الحافلة واكتظَّت، الكلُّ يحمل في يده هاتفا ذكياً، فظننت نفسي غبيّاً، هاتفي معطَّل، يعمل تارة ويتوقَّف تارة أخرى.

أخرَجتُ كتابِي المعنون بـ: عابرو سبيل على جسور الذِّكريات، وبدأت أقرأ وأتناقش مع صديقي "**أسعد**" عن مضمونهِ ومغزاه، وإلى أيِّ مكان ستقودنِي هذه الذّكريات؟ ذكريات حبّ أم صداق؟ ذكريات حزن أم فقد؟ فحتّى أنا لست أدري ما يخفيه القدر.

نظر إليَّ بعضهم وظنُّوا أنِّي جئت من كوكب زحل، نظرتُ أمامِي، خلفي، عن يميني، عن شمالي، فما رأيت أحدا يحملُ كتابا، فأدركت أنِّي المجنون الوحيد من بين الرُّكاب، ثمّ خاطبت مصطفاي:

–من سيحملُ عنّا كتابنا غدا، نعم إنّه كتابنا، لكنّنا لم نكتب فيه بأيدينا، فقد أراحونا من نهم الكتابة، لكنّهم سجلوا لنا كلّ صغيرة وكبيرة، حتّى تنهيدة أنفاسنا، نبضات قلوبنا، حين الظلم، حين القهر، حين القسوة، حين الغيبة، حين يحين الحينُ، عدد الشَّهيق والزفير...

ثمُّ قلت لأسعد: إمَّا أنِّي المتخلّف الوحيد أو هم العلماء الذين لم يولدوا بعد، فأنا لا أعرف شيئا، الكلّ منشغل بخبزته، كيف يحصّلها وأنت تتفلسف علينا...

الحافلة تسير وفي كلِّ مرَّة ترتفع وتنخفض، الطرّقات غير مستوية، ونحن نناشد المدنيّة الحديثة، ارتفعت مرَّة ثانية فالتطم رأسي بالعمود الذي كان أمامي، فقلت:

– آي...

سقط الكتاب من يدي، من يلتقطهُ؟ النّافذة مفتوحة، هبَّت عليه نسائم من فوق السَّحاب، فتناثرتْ أوراقهُ عاليًا هنا وهناك، كلّ صفحة تطايرت أخذت مكانها بين يدي أمّ مقهورة، وطفل متشرّد، وشاب

ضائع، وفتاة تناشد أحلامها، وما تبقى من وُريقات ناشدت التُّربة الحمراء وفاءً، فرُحتُ ألملمُه حلما بين الجنبات.

ضحك عليّ "**أسعد**" ضحكة جعلت الجميع ينظرُ إليَّ.

–ما ذنبي أنا، لماذا تضحكون عليّ؟ نظر إليَّ الجميع، بين متعاطف وبين شخص لا يكترث، هذه هي أصناف النّاس ومعادنهم، تربتهم مختلفة الألوان فحتّى طباعهم مختلفة والاختلاف رحمة، فقلت:

–ما بال هذه الطُّرقات غير ممهّدة؟

–آه! أظنُّ أنَّكُم لا تدفعون فاتورة تسوية الطُّرقات؛

تركت الأوراق التي تناثرت عند أصحابها، وأمسكت ما تبقى من حبر الحياة، وأخذت أنظر من نافذة الحافلة إلى كتاب الطبيعة الحيّة في المدينة النّائمة، وفي كلِّ مرّة تتوقّف الحافلة لتنزل ركابا، ويصعد ركَّاب آخرون، هكذا هي الحياة محطّات، كلّ ينزل في المحطَّة التي تنتهي فيها ورقته النقديّة، فما نحن وأنتم إلاَّ عابرو سبيل على جسور الأفعال لا الأقوال.

واصلتُ النَّظر من النّافذةِ والحافلة تسير كما تسيرُ حياتنا ولا نعرف في أيّ محطّة تتوقّف؟ وإذْ بي ألمحُ عجوزًا في مثل سنِّ جدَّتي تُسرعُ، لا تنظرُ إلى الأرض، تستعجل بنظراتها مرور الحافلة انزلقت قدمها في حفرة الوحلِ، تعثَّرت في الطَّريق، اتّسخت ثيابها إنّها عثرة الحياة...

تذمّرتُ لأوَّل وهلةٍ ثمّ خاطبت نفسي:

ألم يقل عمر؟

ردّ عليّ مصطفاي بقول عمر: «**لَو أنَّ بغلةَ عثرتْ بأرضِ العراقِ، لسألنِي الله عنهَا لماذا لم تسوِّ لهَا الطَّريق يَا عُمر؟**»

والتي عثرت امرأة، أين هو عمر أنَسيَ كلامه؟ أم أنّه لم يرها؟ أشارت العجوز بيدها اليمنى للسَّائق حتّى يتوقّف لها.

عمر: توقَّف أيّها السَّائق تلك العجوز تريد أن تركب.

بدأ الجميع يصرخ أين تريد أن تركب هذه العجوز؟

ألا ترى أنّ الحافلة مُكتظَّة، بدأت أتذمّر من الرُّكاب ومن كلامهم الكثير، يحشرون أنفسهم في كلِّ شيء، يتطرَّقون لكلِّ المواضيع، زواج، طلاق، بيع، شراء، يتفلسفون، زحام شديد، الكلّ يدفع بعضه البعض، اختلطت الروائح بين العطور ورائحة العرق والجوارب... كدت أختنق لولا أنّي كنت أنظر إلى فتحة النّافذة التي يدخل منها الهواء لأغمىَ عليَّ.

صعدت العجوز، وإذ بشاب بتحليقةٍ شعر غريبة عجيبة وبلباسٍ مُقطَّع ومُمزّق على ألوان الموضة، كأنّه أخذه من عتبة فقير، أظنّ أنّه استعاره منه؟ يرتدي سروالاً مُتدليًا من الخلف حتى أنّي خفت أن يسقط ويسقط ما تبقى من زمن الرجولة، يقف وينادي العجوز:

-تعالي يا أمَّاه اجلسِي هُنَا، ومدَّ يدهُ، أمسكَ يديها اللَّتين ترتجفان وأجلسها في مكانهِ، ووقفَ هو بجانبها.

تعجَّبت من تصرّفهِ الجميل ومُناداتها بأمّي، وكنت قبل قليل أحدِّق إليه وأخاطب مصطفاي:

- ماذا يعجبهُ في الشَّكل الغريب للباسهِ وتسريحة شعره الغريبة؟ فأيقنتُ في قرارة نفسِي أنِّي ظلمتهُ بحُكمِي المسبق، وبعدما جلست العجوز أخذت تتهاطلُ عليه دعوات الخير منها، يا له من تصرّف جميل!

ثمَّ أقبل العامل في الحافلة من أجل أخذ نقود السَّفر، فدفعت العجوز ثمن تذكرة مكانها وثمن تذكرة مكان الشّاب، ومنعته من دفع ثمن التّذكرة، ظنًّا منها أنّه فقير معدم، سكت حينها الكَلامُ عن الكَلامِ، وأعطى الفرصة للكِلاَم أن يفتح الصّفحة الحمراء التي رُسمت فيها الحمامة البيضاء على أغصان الشّجرة الخضراء، وتركوا لطائر الحريّة أن يتحدّث عن الكُلاَمِ، إنّها امرأة تفوح منها عطور التُّربة الحمراء، أخذت بيدها الحانيّة تُغطّي ما كشف عن جلد الشّاب من ثقوب تركوها لنا، كلّما رأيناها تذكّرنا وجعًا لا يسكن أبدا.

خاطبته العجوز بصوتٍ يرثي شهيدهَا، والدُّموع تذرفُ من مقلتيها:

– لقد ذكّرتني يا بني بالشّهيد "**مُحمَّد**" حين كان يمشي تحت الأسلاك المكهربة أيَّام الثّورة من أجلِ الوطن، من أجل أن ننعم بالسّلام في أرضنا، نعم إنَّهُ خط بحبر أحمر خط (موريس)، كانت الأحجار الموجودة على الأرض تترك أثر وثقوبا على ملابسه كالثُّقوب الموجودة في ملابسك، وتترك لونا واحدا مهما غسلته يبقى ذلك اللّون معانقًا لكلّ ألبسته، إنّه لون الدّم، لون التّضحية من أجل الوطن، أدرك الشّاب أنّ الشهيد الذي تتحدث عنه هو ابنها...

تركت العجوز في قلب الشّاب حسرة وسؤالا كبيرا ماذا فعلوا هم؟ وماذا فعلنا نحن؟

إنَّهَا ثقوب أورثتها العولمة للبشريّة، إنَّها منافذ الشَّيطان في ثوبِ التَّحضّر، إنَّهَا ثقوب التحضُّر المزعوم عبر جسور الأجساد، إنَّهَا فتحة نُورِّثها للأحفاد من قطعة نار تشتعل على هدوءٍ، من يشعلها؟ من يطفئها؟

عُدت إلى محفظتي وأخرجت كتابا آخر، وبدأت أقرأ عند الصّفحة التي فتحت فيها الكتاب لأجيب عن سؤالي، لأروي ظمئي من كيد الغزو، من كيد الغزل، واصلت القراءة علَّني أفتح لغزا لطالما أرّقني.

من نحن؟ ومن هم؟ ولماذا صراعنا لا ينتهي؟

توقَّفت الحافلة، وما إنْ وصلت إلى المكان المشهود حتَّى رأيت رفقائي، "**عماد**"، "**أحمد**"، "**طارق**"، ألقينا التحيَّة على بعضنا، وأخبرتهم برؤيتي اليوم لـ: "أسعد"، فرحوا كثيرا، وتمنّوا رؤيته من جديد، لكنّه يختبئ ليرى ردّة فعلهم عندما يعلموا بقدومه.

عمر: أُنظروا من وراءكم... ضحِكَ "طارق" وقالَ: البحرُ من ورائكُم والعدُّو من أمامِكُم...

التفتَ الأصدقاءُ جماعةً ولما رأوا "**أسعد**" صرخُوا جميعًا من أعماقِ قلوبِهم:

– "**أسعد**"! ثمَّ احتضنُوا بعضهم البعض، واتَّفقوا أن يقضُوا يومًا جميلاً يستعيدونَ فيه هفوات الدِّراسة... بدأت رحلتهم.

بدأنَا المسيرَ في الطريق، نُدردشُ مع بعضنا البعض، نتحدَّثُ عن أمورٍ تشغلنَا، وتارة أخرى يستوقفنا صديقِي "**عماد**" بالضَّحك من كثرةِ نُكَتِهِ فهو الوحيد من بين الأصدقاء الذي يضحكنا، لم نشعر بالوقت ونحن نمشي، نتجوَّلُ من شارع إلى شارع، من محلٍّ إلى محل في عرصات المدينة...

"أُمنيَّةُ أطفالِ الشَّوارع"

تمكَّن منَّا التَّعب، ونالَ منَّا نصيبًا، وجدنَا كراسي خشبيَّة جميلة جدًا مُصطفَّة في وسط المدينة، كأنَّهَا تُهلِّل فرحًا لاستقبالنا جلستُ وأصدقائي عليها، لفتَ انتباهنا مجموعة من الأطفال السُّود المهاجرين من بلدانهم لظروف قاسيّة وقاهرة، أسبابها نجهلها حتى نحن؟

أطفال تتراوحُ أعمارهم بين السَّابعة والثَّامنة والتَّاسعة والعاشرة أخذوا في الالتفافِ حولنَا... لونُهُم كلونِ المنبتِ الأوَّل، إنَّهُ لون التُّربة الحمراء، بني وأسود، وما بينهما مُختلط، عيونهم كحبَّاتِ اللَّوز، لهُم شفاه لونهَا كلونِ المغيبِ الأخير يميلُ إلى البنفسج، إلى جانبِ اسمرار حولَ الفمِ، فحتَّى ألوان شفاههم تنبئُ بِرداءَة حالتهم الصِّحيَّة، إنَّهم يُصارِعُونَ من أجلِ البقاء، لا يهمُّهم أين وكيف؟ كيف عبرُوا إلينا لا ندري؟ ملابسُهم ألوانهَا مُختلفة ومُختلطة غير مُتناسقة، أقدامهم حافيَة مُتشقّقة من أثرِ المشيِ على التُّراب دون حذاء، يحملونَ علبًا صغيرة في أيدِيهم الصَّغيرة، لأوَّل وهلة تظنُّ أنَّهم لوحدِهم، وإذا رميتَ بطرفِ بصركَ بعيدًا تُشاهدُ الأب والأمّ يجلسونَ على الأرضِ واضعين أرجلهم أمامهم، وابنهم الصَّغير لا يكاد يتجاوزُ سنة واحدة من عمرهِ يلعبُ على الأرض ويحملُ أيّ شيء تراهُ عينه وتلتقطه يده.

ينظرونَ إلى صغارِهم من بعيد، يُحاربونَ الفقر والظروف، إنَّها لقمة العيش، إنَّهُ البحث عن الأمان، يبحثونَ عن وطن يحتضنُهم، تلكَ أمنية أخرى علَّقتها على الجسر، إنَّهم عابرو سبيل على جسور الفقر.

كُنَّا على مقربةٍ منهم عندما مرَّ بهم شخص وخاطبهم بعنصريَّة:

–لماذا تُشوّهون مدينتنَا وتسلبُونَ خيراتها؟ أصبحتم تشاركوننا حتَّى هواءنا الذي نستنشقه.

نطق صديقي "**عماد**" وقالَ:

–ما هذه العنصريَّة؟ شَعَرْنَا أنّ قلوبهم انكسرت، أين الإنسانيّة؟ من يُلَمْلِم شتاتهم؟

تمنّيت لو أصبتُ بالصّمم قبل أن أسمع ذلك الكلام من أبناء جلدتي، ثمّ سألتُ أصدقائي: لماذا هذه العنصرية؟

ما دمنَا نمشِي على ترابٍ واحدٍ، ونستنشقُ هواءً واحدا، ونشربُ من منبع واحد، فأكيد أننّا من روح واحدة، مُزج ترابها الأوّل بمائهَا فأصبحنَا كتلة من طين لازب، فكيفَ نلومُ من ولدتهُ أمُّك (حوّاء) وأبوكَ (آدم)؟ لماذا تجعلُونَ للأعلامِ ألوانًا، وللبشريةِ عنصريةً؟ والأمر اللاّفتُ للانتباهِ أنَّ هؤلاءِ يعشقونَ اللَّون الأحمر، فكلُّ العشاق يضحُّون من أجل ذلك اللَّون، لون الحبِّ، لون اللَّحظات القصيرة، لون العشق حين يشتعلُ ويُلهِبُ قلب العاشقِ ليلاً، فيجعلُ من قلبهِ قنديلاً يُنيرُ بهِ ظلامه الحالك، ولون الدَّم حينَ يسقي الأرض، إلاَّ أنَّ أحمرهم فيه قُوت يومهم، كأنَّهُ الجمر حين تضعُ فوقهُ قدرا ينضجُ على نارٍ هادئةٍ، كذلكَ أحمرهم لاَ ينضجُ إلاَّ على نارٍ هادئة، بل على عدَّة ثوانٍ ينتظرون ليطبخوا أكلتهم.

هكذا هم! وهكذا نحن لا زلنا نعيشُ لأنفسنا ولا نشعرُ بهم! رأيتهُم يتجمَّعونَ أمامَ عينِي عند ذلك الرَّجل الواقفِ طول السَّنة عَمودهُ، الذي لا يكلُّ ولا يملُّ، يفتحُ عيونهُ الثَّلاثة واقفًا منظِّمًا حركة العبورِ، مُنتظرا قدومَهم بلهفةٍ، عيونهُ ذات اللَّون الأخضر، والبرتقالي والأحمر...

يتربَّصُون، ينتظرونَ بلهفةٍ اشتعال الضَّوءِ الأحمر حتَّى تتوقَّف السّيارات وقلوبهم قد اشتعلت قبله، ما إن يشتعل حتَّى يركضُوا إلى السَّيارات يمدُّونَ أيديهم الصَّغيرة حاملين عُلبًا صغيرة استعملت ورُميَتْ، لكنَّها وسيلتهم الوحيدة يجمعونَ فيها قطع النُّقود الحديديَّة، وهم يردِّدون كلمة: «صَدَكَه، صَدَكَه صَدَكَه»، وهم ينظرونَ إليكَ ويستعطفونك رأفةً بهم، ويدعونَ لك دون فهم لغتك، ومن الطَّريف جلستُ ذاتَ يومٍ في متنزَّهٍ برفقةِ "**ماريا**" نشربُ مثلَّجات لأنَّ الجوَّ كان حارًّا جدًا، وإذا بالطِّفلِ الجميلِ صاحب التِّسع سنوات، لونُ بشرتهِ كأنَّهَا الشُّكولاَطة يُغوِيكَ منظرهُ، حركَاتُهُ وهو قادم إليك وأنت تتأهَّبُ بشغفٍ لتسمع حديثهُ وقد اقتربَ يحملُ علبةً يضعها أمامكَ فوق الطَّاولة، ابتسمنا له، وكانت "**ماريا**" قد أعطتهُ بعضًا من المالِ، لكنَّ المفاجأة التي تنتظرُها منهُ لم تتوقَّعها أبدا، أخذنا نتحدّثُ معهُ ولما وضعتُ له المال في العلبة فرح فرحًا شديدا وقال:

الله يعطيك زوجة واثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وستَّة ...

تفاجَأتْ "**ماريا**" من كلامهِ ولحقت بهِ هرولةً وهو يجري ويضحك بملء فمِهِ، هكذا هُم وهكذا هي براءتُهم، فقط يردِّدون ما علَّمهُم إيَّاه الأولياء، فترى الكرماء يضعون لهم النُّقود في علبهم، الذين يعبرونَ جسرهم عبر صدقاتهم، فترى الأطفال يركضون من شدّة الفرح كأنّ بهلوانا قدَّم لهم عرضا مسليا، أظنُّ أنَّه أجمل عرض حَقيقيّ للطُّفولة المنسيَّةِ التي تقف في طريق الخطر، طريق السَّرقة والاغتصاب.

هذه هي البشرية تغتصب روحها في نفس براءتها...

وبعضهم الآخر يركضُ هنا وهناك لكنَّهم يملؤون المكان ابتسامة، لو وُزِّعت على الأغنياء لأغنتهم ترفًا، عيُونهُم مِرآة ترَى فيهَا براءتَهُم، ترى فيها سكنا للبراءة التي لا تشتكي، وترى فيها صورتك إذا كنت إنسانيًا بطبعك.

نطق "**أحمد**" وقال لي:

-يا عمر رأيت في عيونك عالمًا يُناشد البراءة في أوجِّ بهائِها، في أوَّج عطائها، بالله عليك يا عمر ماذا يقصدون؟

-يقصدون، صدقة، صدقة، صدقة.

ثمّ قال "**عماد**" وهو يضعُ يدَهُ على فمهِ مندهشًا من تصرُّفاتِهم:

-أطفالٌ صغار ويتسوَّلون، في أيِّ زمنٍ نحنُ؟

-نعم، اتّخذوا الشَّوارع مساكنا لهم، فقد ضاقت بهم قلوب البشريّة، فأين المفرّ؟

مصطفى: آه على البشرية التي أخذت الرَّاء من الخير والرَّاء من الشرّ وضيّقت عليه الخناق.

طارق: عجبا! يسكنون الشَّوارع، والابتسامة تملأ وجوههم، والنَّاس تسكن القصور والحزن يملأ بيوتهم.

عماد: ألا يخافون على أبنائهم من الاختطاف وهم يجوبون الطُّرق؟ يقشعرُّ بدني عندما أرى في القنوات اختطاف أطفال واستغلالهم.

عمر: لا، تعوَّدوا على هذه المعيشة.

أحمد: ألم يسمع بهم عمر؟

عماد: من عمر؟

عمر: ألا تعرف من هو عمر؟!، عمر الذي يتفقّد أحوال الرَّعية...

عماد: سبحان الله، يعيشون في الشَّوارع، ينجبون أولادا، وآخرون يأكلون صيدليات من الدّواء، وليس عندهم أولاد، فسبحان من يهبُ من يشاء إناثا وذكورا دون تعب أو عناء! إنّها حكمة إلهيَّة.

–نعم. يهبُ من يشاء يا صديقي عماد ذكورا وإناثا، دعهُم يا صديقي، فما هم ونحن إلاَّ عابرو سبيل...

أسعد: إنَّهم بشر مثلنا يمشون على نفس التُّراب الذي نمشي عليه، انظر إلى أطفالهم كيف يرسمون على التُّراب خطوطا!

تقدَّمَ منهم عمر وسألهم:

–يا أطفال ماذا ترسمون؟ هل ترسمون أمنياتكم؟

الأطفال: نرسمُ جسْرَكُم، نرسمُ بيوتًا صغيرةً، نرسمُ ألعابًا نحلمُ بها، نرسمُ أمْنًا، نرسم أمَانًا في أوطانِنا! نرسُمُ أمنيَّة العودة إلى أوطانِنَا، إلى أرضِنَا...

عمر: كيف هُو جِسرُنا؟ هل هناكَ جسرٌ آخر لا أعرفه؟ نطق ذلك الطِّفلُ بما أعجز عمر وأصدقاءهُ لم يتوقَّعُوا أنَّ هذا الطِّفل بهذا العقل.

–أنا لا أقصدُ جسوركُم التي في عقولكم أنا أقصدُ جسْرا واحدًا، أظنُّكم نسيتموه.

–هيّا تكلَّم، لقد نفذَ صبْرُنَا.

– أنا نقطة من هذا الجسرِ، ألا تدركونَ ذلك؟ ستكونُون في المكانِ الذِي ذَكَرَهُ صاحبُ "**عُمر**" فهو لا ينطِقُ عن الهوى، فقد قال نبيُّنا: سنكون على الصِّراطِ ولا يوجد فيه إلاَّ ثلاثة أماكن «جهنَّم والجنَّة والصِّرَاط»، نطق "**عمر**":

-ألم أخبركم من قبل أنَّ للجُسُور ثلاث مراحل: الانطلاق والوصول وما بينهما...

اصمت يا "**عمر**" دع الطِّفل يُكمِل، فالله يسمعُ كلام الأطفال ألم تسمع ذلك الطِّفل السُّوري الصّغير الذي لم يتجاوز عُمره الثَّلاث سنوات قال قبل وفاتهِ بأيَّام: «سأخبِرُ الله بكلِّ شيء»، دع هذا الطِّفل يُخبِرنا، فنحنُ منشغلون بهذه الدّنيا التي سرقت منَّا صحوتنا وتركتنا في غفلة.

- ما اسمُ هذا الصّراط؟ ومن الذي حدَّثكَ عنه؟

- حدّثني عنه والدي البارحة، وذكرَ اسمَهُ: جسْرُ الصِّراط.

- عمر: آه، تذكَّرتُ ما قالهُ نبيُّنَا محمّد صلّى الله عليه وسلم: «ثمَّ يُؤْتَى بالجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جهنَّم، قلنا: يا رسولَ الله، وما الجِسْرُ؟» ...

نطق **طارق**: هل يُشبه جسورنا؟

- يشبهها ولا يشبهها

بلغنا عن نبيّنا أنّه «بلغني أنّ الجِسرَ أدقُّ من الشَّعرة وأحدُّ من السَّيف»

-أخفتنِي كثيرا يا عمر.

-كيف سنعبر؟

-إذا كنّا نحملُ زادا مختلفا ألوانه من عدلٍ وأمانة ... فإنَ عبورنا سيكون كالبرقِ، أما إذا كان حملنا ثقيلا بذنوبنا من قهر وظلم ... فسيكون عبورنا بطيئًا بين الخوف والهلع.

عُدنا إلى الصّغار نحادثهم، هل هي بيُوتكُم؟

الأطفال: ههه... نحن نعرف أنَّنا لن تكون لنا بيوت مثل بيوتكم لأنّنا عابرو سبيل على جسور مشاعركُم، تعطفُونَ علينا حينا وتكسِرُون خواطرنا حينًا آخر، لكنَّكُم نَسِيتُم أم تناسيتم أنَّكم تحطِّمون جُسُوركم التي سوف تعبرون عليها غدا، نطقَ عُمر على مسمَعِ أصدقائه وقال: نعرفُ أنَّ جُسورنَا صعبة العبور يوم تبدَّل هذه الأرض.

أعطاهم "**عمر**" نصيبا من النُّقود حتى يقتاتوا به، لأنّهم عبروا قلْبَه وتركوه ينزف أسفا على حالهم، أخذ يحدّق بهم، أبصر العالم في عيونهم بياضا لبياض قلوبهم البريئة، وسوادا كسواد القلوب المتحجِّرة، نظر إلى مُحيّاهم، ارتسمت الابتسامة على وجوههم وهم يتراقصون وسط الطريق، ويتكلّمون بلغتهم التي لا نفهمها.

لكنَّنا نفهم اللُّغة التي اتَّفق عليها البشر، وهي الابتسامة، ابتسامة تصنع الحياة من جديد لمن عنده كلّ شيء ويتذمَّر، يمشي على رجلينِ ويتذمَّر، يبصِر بعينينِ ويتذمَّر، يُمسك بيدينِ ويتذمّر، يستنشقُ هواءً نقيًّا مجانا ويتذمّر.

رمينا بخطواتنا إلى الأمام نواصل العبور إلى المجهول...

نادى طفل منهم، التفتُّ لوحدي لهم، فقد حفروا مكانا في قلبي الذي تقطّع لحالهم...

نطقَ أحد الصِّغار:

لقد رسمتُ لك بيتًا، ألا تريدُ أن ترى بيتك هنا؟ ضحكَ أصدقائي منهم، استهزاءً بخطوطهم التي يرسمونها ويشّكلونها منازلا؟

لمن؟ لا أدري...

لمن تذرف دموعهم للبشرية الهاربة، لمن ينفطر قلبه للبراءة الضائعة، لمن يعطف على الشاة المنفردة، عن أيّ منازلٍ يتحدّثون؟ أيّ بيوت يقصدون؟ عن أيّ مساكن يتحدّثون؟

يعودون بنا إلى الزَّمان الأوَّل، زمن الحرية، زمن التلقائيّة، حينما كنّا نرسم على رمال الصّحاري، أين هو ذلك الزّمن الغابر؟ تركناهم دون أن أسمع الجواب، لنواصل العبور عبر جسور مشاعرنا...

واصلنا المسير نجوب الشَّوارع حتّى تمكّن منّا التّعب، جلسنا في مكان وسط المدينة الفاضلة، به اخضرار، وأمامه مدرسة، جلس بجانبنا طُلاَّب يتحدّثون عن مشاغلهم، عن همومهم، وهم يحملون أمنية النّجاح أضفتها للأماني التي أحملها في يدي اليمين، يتحدّثون عن المواد التي ترهقهم فهمًا وحفظًا، فاستهوانا حديثهم، وطريقة تفلسفهم العجيبة، كما استهوتنا رحلة عبور المدينة بطرقاتها وشوارعها الجميلة عبر قارب عقارب السّاعة.

قال قائل منهم ونحسبه أوسطهم: "تعالوا نحلّ مسائل في الرياضيّات حتى نستطيع حساب المال بسهولة أثناء حصَّة التّاريخ لأنّ التاريخ فيه فجوات، وتلك الفجوات تُصيبنا بالعثرات، ونحلّ مسائل في الفيزياء أثناء حصّة اللُّغة العربيَّة لأنّنا نخاف من الحال والأحوال، نخاف إذا أخطأنا في إعراب المضاف فنضافُ إلى قائمة الخاسرين، وإذا أخطأنا في إعراب الصِّفة يصفوننا بالأغبياء، لا أريدُ أن يجرحوا مشاعري، أصبحنا إذا أخطأنا في إعراب المرفوعات يُرفع أمرنا إلى الأولياء بالتّهاون والاستهزاء، وإذا أخطأنا في إعراب المنصوبات تنصّب لنا لجنة احترافية، وإذا أخطأنا في المجرورات يجرُّ البساط من تحت أقدامنا؟...بصراحة

نخاف الإعراب، نخافُ من كلِّ شيء، تمنّيتُ لو قالوا لنا: أعْرِبُوا عمَّا في قلوبكم، أعربوا عن أمنياتكم الجميلة، لكن هيهات أن تسمع هذا الكلام!

وقال قائل منهم نحسبُه أصغرهم: نحلّ مواضيع في العلوم الطَّبيعية لأنَّنا نريد أن نعيش حياة طبيعيَّة دون منغِّصات، دون حروب، دون أمراض وأوبئة غريبة، ونحضر حصّة الفلسفة هذه المادَّة التي تجعلني أتفلسفُ وأصبح فيلسوفا، وزمن الفلاسفة اندثر".

فتدخّلت دون استئذان منهم وقلت:

"افعلوا غير الذي قلتم، ولا تهملوا شيئا، ولا تستصغروا مادَّة فالكلُّ يبدع في مجاله، لا تكُونوا كالحجر الصّغير في السدِّ لـ: إيليا أبي ماضي، هذا الحجر الذي كان يندب حظَّهُ واستصغر نفسه وظنَّ أنَّهُ بلا أهميَّة وبلا جمال وبلا فائدة، ومن شدَّة يأسه قرَّر المغادرة ولم يرض بمرتبتهِ، فغرقت المدينة بسبب احتقاره لنفسه وعدم رضاه بما كُتبَ لَهُ، فلا تُحقّروا مادَّة على أخرى، ولا تجعلوا اليأس يركبكُم، فتشعروا بثقل الهموم"...

هَزُّوا رُؤوسَهم، تركنَاهُم وهم يَتجادلون ضائعين بين مؤيّد ومعارض، بين سُؤال وجواب على أمل أن يتَّفقُوا على ما ينفعهم لنُواصِل رحلةَ البحثِ في مدرستِهم عن أصدقائنا القدماء... فالذِّكريات اليوم استيقظت على جُسُور من عبرُوا قلوبنا يومًا، ها هي الذِّكريات تصطفُّ لتروي الصَّداقات، تروي عطشنا لتلك اللَّحظات التي لا يمحيها غبار السِّنين، اشتهينا استعادة الضَّحكات، الهفوات، أشتاق إلى ذلك الزَّمن الذي لا تقيِّدنا فيه قيود الكبار ولا تحدّنا فيهِ حدود

الأفكار... ثمّ عدنا إليهم وسألنَاهُم عن مديرهِم لأنَّهُ كان مدرِّس مادَّة اللّغة العربيّة، لِسانهُ فصيح ينثرُ عطرَ اللغة العربيَّة على كلِّ الأسماع، فتفاجأوا أنَّنا نعرفهُ ثمَّ ابتهجوا تظاهرا وقالوا: إنّه شخص رائع!

فقلنا: ولماذا قلتم أنّكم تخافون الإعراب؟

قالوا: لأنّه صعبٌ، ثمّ قاطعُونَا الكلام، وقامُوا بدعوتِنَا لرؤيَةِ المدير، رمينَا بخطواتنَا نحو مكان دراستهم، ولجنا الباب ونحن نحادثُ بعضنا:

– هل سيعرفنا أم أنَّنا سنتوه عنه؟

وما إن دخلنا حتى رأينا شخصا يمشي بين الصّفوف، يعانق هذا ويقبّل هذا، ويمسح على رأس هذا، فنطقنا جماعة: إنّه هو...

استدار الأطفالُ كلُّهم إلينا في دهشةٍ وذهولٍ، وكذلك الشَّخص الذي كان معهم، ونطقنا جماعة: إنَّه مُعلِّمنا، نعم إنَّه هو، لقد تغيَّرت ملامحُه واشتعل رأسه شيبَا، إلاَّ عطفه وحنانه على أبنائه لم يتغيّرا أبدا، ها هو كعادتهِ يتجوَّل في حجرات التَّدريس كأنّه يطوف بين الصَّفا والمروة، نعم يحجُّ مع تلاميذه، ويرمي جمراته على الشَّيطان الذي يتربّص بهم، لا يتعبُ ولا يكلُّ ولا يملُّ، يحملُ الحَجرات ويمحو العثرات، وحين يسألوه عن حبِّه لتلاميذه يقول: إنّهم يسرون في عروق دمي، فكيف أستطيع بالله عليكم التّوقّف عن حبّهم؟ إلاَّ إذا استطعت أن أوقف الدّم في شراييني، ولن يكون ذلك إلاّ إذا عبرت إلى سبيلي الأخير.

أسرعنا إليه وهو ينظر إلينا ويُهْدِينَا ابتسامة التَّقدُّم نحوه: لم يتعرَّف علينا لأوَّل وهلة، فمنذ سنين لم نذهب إلى مؤسّسة شاعرنا الأندلسي "ابن زيدون"، وقمنا بضمّه ضمّة قويّة كما كان يفعلُ سابقا، وما إن

وضعنا أنفنا عند أنفهِ وقمنا بتحريكهِ يمينا وشمالاً أدركنَا، وقال: عمر، أسعد، عماد، طارق، كبرتم ولم تنسوا الأرنبة.

فقد كان يضع أنفه عند أنفِ تلاميذِهِ ويهزُّ الاثنان أنفيهما، فيضحك الجميع وترتسم الابتسامة على محيَّا البؤساء، لقد ترك بصمة في قلوبنا لا تمحوها السِّنين...

هكذا أردنا أن نعبرَ أصعب المحطَّات في حياتنا، فقد عبرناها بسلام عبر القلوب البيضاء، وها نحن اليوم نسترجع تلك الأيَّام الجميلة؛ أخذنا ذلك المدير فقد كان طيّبا في زمن تتجمّد فيه الطّيبة داخل أسوارِ القلوب وتوضع في ثلاجة أو مُبرِّد.

بعد كلّ هذه المشاعر الجياشة... نادى المدير على أصدقائه ومشجّعوه في مشروعه ونادى: يا "عمر" أحضر أصدقاءك ولنقم بجولة في حجرات التّدريس لعلّكم تستعيدون بعض الذّكريات.

اشتهينا العودة إلى الماضي كما نشتهي فاكهة في غير موسمها إلى مدينة الذّكريات المحاصرة بالصوّر لنضمّ أرواحا قد فارقناها منذ زمن، اشتهينا عناقها، وتلذّذنا بحديثها...

عمر:

بالتّأكيد، لقد عزمنا اليوم أن نجوب الشَّوارع والطُّرقات ونعبر الممرّات للبحث عن أصدقائنا ومعرفة أحوالهم، فهي أمنيَتنا الوحيدة اليوم.

– هذا جميل يا عمر، متأكّد أنَّها فكرتك فقد كنت من أكثر المشاغبين عندنا، إلاّ أنّ أفكارك كانت تصدمُ الجميع، لأنَّك تعيشُ في

زمن غير زمانكَ، فزمان الطّيبة يودّع أيّامه معنا، ويُحتضر أمام النِّفاق، والوجوه المتلوّنة في أقنعتها.

عمر:

هلاّ نذهب، أنا متشوّق لرؤية الحجرة التي كنت أدرس فيها، ومشتاق أكثر لمعانقة ذكريات طفولتي، ومن منّا لا يتوق إلى استعادة زمن الطّفولة، زمن البراءة...

بدأت الجولة في أسوار المؤسَّسة، إلاّ أنّنا رأينا تغيّرا كبيرا في حجراتها وفي بهوها، فلا شيء يبقى على مكانه، أصبحت الحُجرات مزيّنة بأجمل الألوان، وكلّ حُجرة لها اسمها الخاصُّ بها، ولم يكن هذا في وقتنا...

كنت أمشي أنا وأصدقائي ونحن في ذهول كأنّنا في عالم الأحلام ننتقل من حُجرة إلى أخرى، وكلّ حُجرة تختلف عن سابقتها بالاسم واللّون وطريقة التزيين، انتابني الفضول وسألت مدير هذه المؤسسة: من فعل كلّ هذا؟ فقال:

-إنَّهم أصحاب الهمم العاليّة، الذين يعرفون أنّهم يدخلون من باب ويخرجون من باب آخر دون رجعة، إنَّهم الذين يريدون أن يعبروا جسرَ الصِّراط بسلام، يعبرون القلوب على جسور البصمة تاركين وراءهم بصمة الأثر، يعبرون المكان فيشتاقُ لهم قبل أن يشتاقوا له! تتفتّحُ زهور الحدائق حين تشتمّ روائهم قبل أن يشتمّوا رائحتها، تشتاق لهم تربة الأرض وإلى وطأة أقدامهم! أتعرفُ من هم؟

-إنّهم المعلّمون، إنّهم الأساتذة...

أسعد: ما هذا الكلام، يتكلّم مع عمر بصوت خافتٍ، أظن أنّه أصبح حكيما.

دخل كلّ من **طارق، عماد، أسعد، أحمد** وما إن ولجوا القسم حتَّى رأوا الابتسامة مرسومة على كلّ البراعم دون استثناء ابتسامة تعبر القلوب دون منغّصات، دون مقدّمات، ونحن نبخل بالابتسامة حتّى على أنفسنا، أليست مجانية! ...

يبتسم الأصدقاء دون أن يشعروا، ثمّ قالوا جماعة والابتسامة مرسومة على شفاههم:

-حقًّا عبرتم قلوبنا دون تأشيرة، دون جواز سفر، وأخيرا فهم الأصدقاء سبب تسميّة قسم الابتسامة، هذه الابتسامة التي غابت في زمن المصالح، وأصبحت تعيش فقط مع زمن البراءة.

تعالوا معي وانظروا لعلّكم تُجيبوا عن أسئلتكم الظّاهرة على وجوهكم.

تقدَّم الأصدقاء للمرَّة الثَّالثة في دهشةٍ وذهول تملؤهم الفرحة والفخر لِما وجدوه أمامهم، تقدّموا نحو حجرة التَّدريس التي زادت فضولهم، وما إن دخلوا حتّى رأوا أعلاما لم تعانق الحريّة يوما، ولم تر السَّلام، أعلام تناشدكم رسالة السّلام وتقول لكم:

-إذا رأيْتُموه بلِّغُوه سَلامي، وعاتِبُوه لمَ هجرت أوطاني، وأخبِرُوه أنَّه أصبح شعارا للأوطانِ، كَلام، ثمَّ كِلامٌ، لا سلامٌ، إنّها أعلام شجرة الزّيتون التي ترمي بجذورها، ترمي بظلالها إلى ما لا نهاية، إنّها شجرة الزّيتون التي يستمدّ منها شعبها بقاءهم وأملهم وتشبثهم بالحريّة.

لقد رأى الأصدقاء القسم ينبض عروبة برسوماته، بأعلامه بألوانه التي تعانق أطفال الحجارة، يواصل الأصدقاء السُّؤال عن أحبابهم الذين درَّسوهم؟

عماد: أين هي الجميلة أم الدَّلال؟

تأسّف المدير وقال: لقد عبرت من هذا المكان بسلامٍ وعافيَّة لقد أنهت مدّة عملها؛ الآن هي في راحة.

في تلك اللَّحظة طوّقتنا العبرات لأنّها نسخة لن تتكرّر، فطيبتها تحتلُّك رغم جدارك المتين، أناس يتركون بصمة في الحياة لا وصمة...

عمر: لقد عبرت من هذا المكان، كأنّها لم تمكث فيه إلاّ يوما أو بضع يوم.

عماد:

ها أنا أراها وأتذكَّرها تنتقل من مكان إلى مكان، كأنَّها نحلة تنتقلُ من زهرةٍ إلى زهرة بحثًا عن الرّحيق ثمّ تزوّدنا به، عبرت قلوبنا بسلامٍ ومحبّة...

تركنا الذّكريات عالقة على جدران هذه الحجرات، نسمع أنينها، ضحكاتها التي كانت تملأ المكان بهجة وسرورا، وسألنا أنفسنا ماذا فعلنا؟ وماذا فعلتم؟ كيف عبرتم؟! وكيف نعبر؟!

"رحلة الذّكريات"

اتّفقنا أن نستأجر سيارة أجرة ونذهب إلى ملكِ الهدوء، إلى المدينة الزّرقاء، حيث لا وجود للبشر من أجل أن نرويَ له رواتنا الأولى، فالرّوايات أصبحت كَوْنًا قائمًا بذاتهِ، ركبنا سيارة الأجرة نحن الأربعة، استرخينا فيها، شغّل السّائق المذياع، صمتنا كلنّا واستهوتنا حصص المذياع، خُصوصًا عندما سمعنا ذلك الصَّوت الملائكي الذي يأخذك إلى الحبِّ والحنان، يختلجُ مشاعرك دون استئذان.

سأل "**عماد**" السَّائق:

-أتستمع لهذه الحصّة دائما؟

السّائق: طبعا ومن يستطيع مقاومة صوت "**أماني**"؟

طارق: أماني، لا أذكرها؟

عمر: إنّها "**أماني**"، نعم تذكّرتَها صديقتنا التي درست معنا.

يتذكّرها الأصدقاء، يتوقون لرؤيتها، يطلبون من السّائق أن يغيّر الوجهة ويأخذهم إلى محطَّة الإذاعة، أظنّ أنَّهم يحتاجون إلى جرعة أخرى من الذّكريات، يواصلون الحديث عن "**أماني**" وعن جمالها الأخاذ وصوتها الذي يستقطب المستمعين إلى أن وصلوا إلى محطّة الإذاعة، دفعوا له الأجرة، ودخلوا المحطة، سألوا البواب عن "**أماني**"، فقال: نعم أعرفها هي موجودة في الدّاخل، واصلوا المسير ستجدونها في مكان عملها، تقدّموا قليلاً، وجدُوا شخصًا مارًّا سألوهُ عن "**أماني**"، فأخذهم

إلى مكان عملها، ولما رآها الجميع تفاجأوا وكاد يُغمى عليهم من هول ما رأوا، ثمّ نطق أسعد وقال:

يا للعجب! صوتها جميل جدا ومنظرها بشع جدا! ما هذه الورطة التي أوقعتمونا فيها يا رفاق؟

تسمَّر الأصدقاء في أماكنهم، رمقتهم بعيونها الجاحظة، ألقوا عليها التحيّة وهم يتمتمون فيما بينهم.

-نظرت إليهم وقالت: ماذا تحتاجون؟

الأصدقاء: لا شيء.

وإذا بهم يسمعون شخصا ينادي: "أماني"، "أماني"، اخترقت هذه الأسماء قلوبهم، وظنّوا أنّهم في حلم اليقظة، وإذا بالحسناء "**أماني**" تُقبل عليهم عطرها يسبقها بخطوات عدّة، ظهرت كالبدر في اللّيلة الظلماء تمشي على هون والابتسامة تملأ محيَّاها، تحيِّي الجميع، تمزحُ مع شخص وسيم جدا، وتضحك معه وتنثر عطر الابتسامة في الرواق، وإذا به يمسك يدها...

وقفنا أمامها كجنود حرب عيونهم جاحظة، خصوصا صديقي "**أسعد**" الذّي كان يبحث عنها ويتوق لرؤيتها، ويحترقُ شوقًا، ها هو حبّه الأبدي ينثر رماده في لحظة ليشتعل من جديد.

يكلّمني "أسعد" لقد ضاع حلمي، انظر كيف يُمسِك يدها، ويُحسن القبضة، كأنَّه يمزقُ قلبي بكلتا يديه، تلاشت كلّ الأمنيات حينها عَبْرَ جسور السّراب... ولما رأتنا تجمَّدت في مكانها، لا أدري لماذا؟

أخذتْ تنظرُ إلينا عديد المرّات، تقدّمنا نحوها، والحزن يملأ قلب "**أسعد**"

تقدّمت نحونا ونطقت بشفتيها فظهر البلور وقالت: "**أسعد**" أنت أسعد، نعم أسعد...

عماد: يا أصدقاء هذه هي "**أماني**"، لقد أخطأنا في المرأة الأولى.

نطق الأصدقاء جماعة عبارة "**أماني**" التي تكرّرها دائما: "ما في قلبي يقذفه لساني إلى أحبابي، وإذا لم يستطع لساني قذفها....

تكمل: أماني" المقولة: فإنّها تظهر على عيوني التي تفضحني دائما.

وإذ بالمفاجأة التي كادت أن تُودي بصديقي "**أسعد**" حين قدَّمت لنا ذلك الشّخص الوسيم وقالت: هذا أخي "**رياض**".

عادت البسمة الضَّائعة لشفاه "**أسعد**"، وأخذ بريق الحبّ يلمعُ في عينيهِ، وُلد الأمل من جديد على جسور الانتظار...

أخذنا نتجاذب أطراف الحديث إلى أن مرَّ علينا المسؤول وأخذ يصرخ في وجه "**أماني**" صراخا يوقظ الميت من قبره، استحيت "أماني" من كلامه ونحن وقوف، ووضعت إصبعها على فمها وأشارت برأسها يميناً وشمالاً، وهي تطلب منّا ألاّ نتدخّل. تمالكنا أنفسنا، فنحن في زمن المناصب!

بدأت تعتذر منه بصوت هادئ، وهو يزداد توبيخا، ولما ذهب أخبرتنا "**أماني**" عن معاناتها في العمل، وأنّ جمالها الأخاذ وصوتها الملائكي يسببان لها مشاكل عدّة، فأغلب الرِّجال ممَّن تعمل معهم داخل العمل أو خارجه يتغزّلون بجمالها، ينظرون إليها جسدا تمثالاً لإشباع نزواتهم الغبيّة لا روحا تعبرُ المكان فتعطّره بحديثها لا يسمعون للغتها، بل للغة الجسد، إنّهم تماثيل الشَّيطان... فقد باعوا أرواحهم منذ زمن...

إنَّها الخطيئة الجاهليّة التي لازالت تطاردنا بعصَبيّتها القبليّة بطقوسها الجنونيّة....

اتَّفقنا معها لمواصلة رحلة التِّجوال في المدينة للبحث عن أصدقائنا قبل أن يذهبوا إلى ملك الهدوء، سهّلت عليهم "**أماني**" المهمّة وأخبرتهم أنّها على تواصل معهم، دلّتهم على أماكن عمل أصدقائهم.

"أسعد" ينظر إليها لأنّه لايزال متشبّث بخيط الماضي...

وجد "**أسعد**" رفقة "عمر" حبّه الضائع ...

فكّر "أسعد" وقرّر في سرعة من أمره... ماذا قرّر؟ أخبر صديقه "عمر بما يفكّرُ به وأسرع بعد أخذ أمّه لبيت "**أماني**". فبعد رحلة بحث طويلة، وبعد تفكير أسرع "**أسعد**" وتقدّم لخطبة "أماني" فهو لا يريد أن يتركها تضيع منه كما ضاعت منه قبلاً، وما ضيَّعتها إلاّ ظروف قهرته وثوب المسؤوليّة الذي لم يجد له مقاسا، إلاّ مقاس "**أسعد**" في هذه الدّنيا، وهذه هي أيامّها تارةً تبتسم لك بملء فِيهِها، وتارةً أخرى تعظّك بأنيابها، فما لك من سبيل إلاّ أن تعبر جسور الصَّبر بأمنياتكَ.

عارضت عائلة "**أماني**" خطبة "**أسعد**" لها لا لأمرٍ وجيهٍ، بل لأسباب زادت من تفاهةِ بعض البشر، لأنَّه يملك عربة خشبيَّة فيها حبَّات كعك يقتات منها هو وعائلته، وليس لديه عربة المال، أليست عائلتها من قالت نحن من طبقة تحلّق في السّماء وأنتم من طبقة تسير ببطيء، فكيف لكم اللَّحاقُ بنا؟

استمرّ الحال على حالهِ، و"**أسعد**" لا يزال ينتظر أهل "**أماني**" للموافقة عليه، رغم مساعدة "عمر" لصديقه "**أسعد**" إلاّ أنّ الحال بقيّ على حاله لمدَّة من الزّمن...

تركنا الوضع على حاله، و"**أماني**" في معركة مع والديها بين الغنى والفقر، وتعيد نفس المسرحيّة القديمة، وتترك "**أماني**" هي الأخرى أمنيتها معلّقة فوق الجسر إلى حين.

ثمّ في مساء هذا اليوم الطَّويل ذهبنا إلى البحر من أجل أن نغسل قلوبنا من هموم أكبر منّا... ذهبنا إليه وزدنا عليه. ألقينا إليه بحرا من الحزن غلَّفناه بألوان الهموم وظِلال الألم، فلا أحد منَّا سَلِم من الهموم والأحزان التي تكدّر صفو عيشنا.

بعد هذه الرّحلة الطّويلة؛ يأتي ما يُوقف الأصدقاء عن ربط جسور المحبّة، ويبعدها حينا من الزَّمن إلى المجهول، ويجعل الرّحلة تتّجه إلى محطّة أخرى عبر جسور المحكمة التي ستعلّق مصير "**عمر**" لشهور وشهور، سيحدثُ ما لم يتوقّعهُ أحد، فلحد الآن كانت رحلة "عمر" وأصدقائه عادية إلى أن حدث شرخ في الجسر، فبدأ الخوف والقلق ...

الجزءُ الثَّانِي:
جسرُ المَحْكَمَة

الجسر الصَّعب

قال "**عمر**" لأصدقائه: تعالوا معي عند الطّبيب هو قريبٌ من هنا، فقد أجرت أمّي فحوصاً طبية الأسبوع الماضي، واليوم يخبرها طبيبها بنتائج الفحوصات الطبيّة، مَشينا قليلاً، صعدنا السّلم علّنا نسلم، ونحن نتحدّث ونمزح مع بعضنا البعض بصوتٍ مرتفع، مرّ علينا شخص نازل وقال لنا: من فضلكم هدوء هناك مرضى في الأعلى، فاستحيينا منه وصمتنا دون تعليق، واصلنا الصُّعود وكانت نبضات قلبي تتسارع وأنفاسي تتزايد خوفاً من النتائج، قصدنا الباب فقد كان منتصبًا كأنَّه ينتظر قدومنا ليفتح لغزا من ألغاز البشريَّة، فلم نستغرب، وأوَّل خطوة خطوتها على عتبة الباب جعلت منّا طيوراً نحلق في سماء الأحلام، نحلم أن تكون النتائج مفرحة، نغرّد بشعارنا: "الصّحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراها إلاّ المرضى"

فقال لي صديقي "أسعد": مهما كانت النَّتائج يا صديقي فتقبَّلها، فما نحن إلاَّ عابروا سبيل على جسور الابتلاء.

هأنذا أصبّرُ نفسي والخوف يعتريني وجدتُ في الاستقبال كل همٍّ من الهموم جلَّس على عتبة قلبي، تساؤلات خطت معي كلّ خطوة خطوتها، وفجأةً اختفت تلك البسمة التي كانت عنواني، إذ بي أسمعُ كلاما، لازلت أتذكرُ كلّ كلمة قيلت، وكلّ حرف نُطِق ارتسم بذاكرتي ونُقش بقلبي، فحينما تجدُ من ينهش لحمك دون سابق إنذار، إنّه المرض الخبيث، يستغلُّ طيبتك وبإصرار، يهدمُ ما تبني من أحلام؛ تتمنّى تحقيقها مع أمّك تحجُّ تعتمر، ويُفسد هذا الفيروس اللعين ما

تتمنى ما تزرع، أين هو ذاك الأمل الذي كنت أنشده طويلاً؟ مرض خبيث يدوس على أحلامي، يحطّمها.

فحينها تُغْتصَبُ روحكَ دون رحمة، ويُعَلّ قلبكَ برصاص البَّرايا تاركا ثقوباً وشظايا، فتتمازج الثُّقوب والشَّظايا، لتُشكِّلَ أروع عنوان لقصص البشرية وأبطالها.

من أبطالها؟ عابرو سبيل...

دموع...ألم.... حسرة.... ظلم.... قهر...حينها لم أشعر بالدُّموع إلاّ وهي تنهمر، لتغسل ما أصابني من بقايا صوت الطبيب، التي اخترق صدري، تمنَّيت لو أنّي أقدر على إيقاف كلاًّ من الوقت والزَّمن لأطلب منهما أن يتوقّفا ولو لبرهةً حتّى أسترجع أنفاسي، حتّى أجمع ما فصلته دقات قلبي، حتّى أستجمع قواي وأواسي حلمي، وأسألهما عمّا أعددتما لي فربّما أجد أجوبة عن أسئلتي؟

غير أنّ الوقت لم يكن يوما إنسانًا لينتظرني حتّى ألتحق والزَّمان لم يكن يوما بشرًا، حتّى يفهماني، فكيف سيقدرون على النُّطق والإحساسِ ويجيباني؟

ها نحن نعيش في صراعٍ مع الزّمن، مع الوقت فتارة يقطعنا وتارة نقطعه.

خرجتُ وأصدقائي أتمشى في مدينة أشعر أنّي غريب فيها، مدينة الأحزان، غريب عن ذاتي، عن وطني، هي غربة قلبٍ وحيد.

أمشي في الطّريق من أجلك يا أمّاه وأسأل النّسوة؟

أيتها النّساء من منكنّ تعرف الدّواء لأمّي؟ فقد علّت، فهأنذا أكتبها لأوّل مرّة بحرف العلّة...

من منكنّ تعرف أمّي؟ أخبروني كيف باغتها الدّاء وكيف لي بالدّواء؟

لم أجد جوابا من امرأة كأنهنّ طلقن الكلام ثلاثا إلى غير رجعة ألم يكنّ من قبلُ يعشقن الثرثرة، ما بالهنّ؟

هذه هي الحياة نغمة تغرينا بإيقاعاتها العذبة ولحنها، تعلّق أنفسنا في الهواء إلى حين، تتركنا نعيش زمناً تتبدّد فيه الأحزان ونهلّل للأفراح للحبّ، في الشباب، في الأعياد، نعيش أيامنا دون أن ندري كيف يباغتنا الزمن وينهي مقام النّغمة العذبة، فنستفيق من حلم جميل عمره أيام، بل ساعات، بل دقائق، بل ثواني، هذا عُمر السّعادة منذ أن ولدت، فهي لا تعيش طويلاً. عمرها قصير.

ذهبتُ مسرعا إلى الجسر، مكاني المفضّل، لحق بي أصدقائي فلحق بهم الجميع، ظنّوا أنّي سأرمي بنفسي من جسري المفضّل يركضون وأركض، وما إن وصلت وسط الجسر حتّى أخذت أستنشق الهواء لأملأ قلبي يقينا بأنّ أمنيتي ستتحقّق وأخرج ما في رئتي، وما في عقلي من أفكار سوداوية، الكلّ يصوّرون، ينتظرون أروع اللقطات، يسارعون لبثّ الأخبار، سبّاقون للنشر، وما إن رفعت عيناي إلى السّماء حتّى أدركت يقينا من هناك آتٍ، فرفعت يداي وتبتّلت...فبهت الجميع وعادوا صفر اليدين. ودّعت الجسر على أمل اللّقاء...

واصلت المشي مع أصدقائي، إلى أين يقذفني الزّمن؟

لا أدري، إلى مكان يبدو جميلاً، لكنّي لا أرى جميلاً.

فما قيمة الجمال دون روحٍ، دون أمّي؟!

ما قيمة الجمال دون أحباب تنبضُ لهم قلوبنا؟!

وَلجْنا دون شعور منّي، مكان رائع وكأنّنا ندخل قصرا مزيّنا بألوان الذَّهب...لكن هذه الكلمة التي تؤرقنا دوماً. حتَّى الذَّهب في ذلك الوقت لا قيمة له بالنسبة لي، فهو أمام السَّلام الدّاخلي عاجز عن المضيّ قدماً، ...سنعبر ونتركه وراءنا أليس كذلك؟ هل توافقونني الرأي؟

فمنطقة العبور لا تقبلُ ذهباً، لا تقبل ديناراً ولا دولارا.

أمام الذّهب، أمام الأمن، الحرية، العدل، فهذه هي لآلئ عقدنا الثمين، التي نفقدها في كلّ يومٍ، رغم أنّنا ننادي بها، لا أحد يسمعنا، لا أحد يصدّقنا، لا أحد يشفق علينا، في كلِّ يوم ننثر عطر عقدنا الثمين ونحلم أن نستنشقَهُ يوماً، فنحن لا نتزيَّنُ به حتَّى في أعراسنا، وأفراحنا... بل نتركه لغيرنا.

لازلت أتخبّطُ فيما قاله الطّبيب كأنّها رصاصات اخترقت قلبي، جلستُ انظرُ وأنظرُ إلى المكان، وإذ بي أرى تمثالاً منتصباً، متربّعاً على عرش المكان، إنّه تمثال لامرأة شبه عارية كأنّه من عهدٍ قديم، يظهر ثدي المرأة مرتسماً، وملامحها عاصفة هادئة، وخصرُها نحيف ملتويّ، أتراه يلوي أعناق الرّجال؟

لونها أخذ من لون السّلام أوّله، ونظرات تأخذ من اللّيل آخره.

وأصدقائي يتحدّثون عن قصّة هذا التّمثال، أسمع لهم حينا وحينا آخر أنظر إليه لأنّه ذكّرني بأمّي.

تمثال عين الفوَّارة 1899م

أسعد:

لقد قرأتُ قصصًا عجيبة عن هذا التّمثال الماثِلِ أمامنَا في إحدى الجرائدِ الوطنيَّة الجزائريَّة، إنَّهُ تمثال لامرأة ذات ملامح غربيَّة شقراء شعرها متدلٍ أسفل كتفيها، مُتَّكئة بذراعها الأيمن، مائلة في جلوسِهَا كشفت عن مفاتنِهَا كما تكشفُ الحياة عن أسرارٍ ضاربةٍ في القدم أصبحت معلمًا يتوسَّط قلب المدينة، يستقطب الآلاف من الزُّوار سنويا، أصبح التّمثال الأبيض بمثابة نقطة مركزية يتحتَّم على زائر المدينة المرور بها والشّرب من الماء العذب الذي يتدفّق بالقرب من تمثال المرأة، في الوقت الذي اعتبرها البعض الآخر إحراجا، بوصفِهَا لامرأة مُجرَّدة من ثيابِها، وهذا يعود للثَّقافة الغربيَّة، فأثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر تمّ بناء هذا التّمثال عام 1898م من طرف النَّحات الفرنسي "فرَانسِيس دوسَانت فِيدَال"(Francis de Saint-Vidal)، النَّحت يُمثِّل امرأة جالسة على صخرة عالية طولها مترين، يتدفَّقُ من أقطابها الأربعة نبع ماء العين الطَّبيعي، هذا التّمثال الذي شارك به النَّحات "فرانسيس" في المعرض العالمي في باريس سنة 1889م وقد اختلفت الرِّوايات حول القصَّة الحقيقيَّة لتشييد هذا المعلم إلاَّ أنَّ الرَّاجح كما ترويه الحكايات أنَّ هذا التِّمثال هو تخليد لامرأة كان يعشقها أحد الحكَّام والتي لم تكن من نصيبهِ، وهو ما كسر قلبهُ الذي لم يكن أمامهُ سوى تخليد صورتها وذكراها بإقامة تِمثال لها، يحتلُّ وسط المدينة فوق

هذا النَّبع المائي[2] ولا يمكن لزائر مدينة "سطيف" إلاَّ أن يرتادهُ، على الأقل من باب العادة... فأوَّل ما يُسأل عنه العائد من المدينة، هل زُرتَ نبع الماءِ وشربت من مائهِ؟ فأهل المدينة يقصدونَ منبع الماء لا التِّمثال في حدِّ ذاتهِ، خاصَّة بعد تداول بعض الأساطير بأنَّ شارب مائها لابدَّ أن يعود إليها يومًا، ما رأيك يا "عمر"؟

سردتُ لكم قصَّة ولا أحد فيكم أوقفني؟ عمر في ماذا تفكِّر؟

أنا دائمًا كُنتُ أتساءَلُ: لماذا يستهدفون هذا التِّمثال بالتَّخريب كلَّ مرَّة، مع أنَّهُم لم يقوموا بنحتِهِ فقد نُحت في فرنسا؟ ولم أكن أظنّ يومًا أنَّ قصَّتي ستبدأ معهُ.

وبين متاهة الرِّوايات والسُّؤالُ طلبتُ من أصدقائي أن يذهبوا ويترُكوني لوحدِي عند نبعِ الماءِ، ابتعدوا قليلاً...غابوا عن نظرِي...

أخذتُ أحدِّق بالتِّمثالِ؟ وكأنِّي بنظراتِهَا تتخاذلُ كأنَّهَا مُتحسِّرة على وضعٍ مَا، نظرتُ إلى التِّمثالِ بثديهِ المكشوفِ يُعاني فذكَّرني بثدي أمِّي الذي رضعتُ منه حبًا وحنانًا، تذكَّرتُ حليب أمِّي، نظرتُ إلى نفسي كيف اشتدَّ عُودي بعدما رضعتُ من ثدي أمِّي صفاء القلوب ونقاء السَّريرة وحليب الفطرة. ذكَّرني بما قالهُ الطَّبيبُ لهَا:

أنتِ مُصابة بورمٍ في الثَّدي!

لم أشعر بشيء إلاَّ والأرض تدور بكواكبهَا من حولي، العالم يتهاوَى... يسقط من حولي، يتناثر قطعًا. من يجمعهُ؟ وأنا أقول: أمَّاهُ، أمَّاهُ، أمَّاهُ... خرَّت قواي من فرط الشُّعور بالعجزِ أمام مرض أمِّي ثمَّ

[2] Voir, Article, https//m.aawsat.com 17-09-2018.

وقعتُ على الأرضِ مغميًّا عليَّ، انتقلتُ إلى عالم آخر، ظننتُ أنِّي عبرتُ باب السَّماء... أهي محطّتي الأخيرة؟

وأنا أسمع صدى صوت أصدقائي من بعيد يردِّدُونَ ما نحن إلاَّ عابرُو سبيل في هذه الدُّنيا، لم أشعر كم لبثتُ؟

فتحتُ عيناي وإذ بِي أرى الأصواتَ التي أسمعُهَا تحدثُ ضجيجًا في عقلي، إنَّهم أصدقائِي، تراءتْ لي صُورهم تميلُ يمينًا وشمالاً وبعد بضع دقائق توضَّحت لي ملامِحهم وهم يلتفُّون حولي باشَرتهم بالسُّؤال: أين أنا؟ فأخبروِني مباشرة أنِّي في المستشفى فتذكَّرت آخر محطَّة وقفت فيها، كنت بجانب التِّمثال، وبعدما عُدت إلى وعيي رخَّص لي الطَّبيب الذَّهاب، وأخذَ يرفعُ من معنوياتِي قال لي: أنت بخير وعافيّة، ما اسمكَ؟ قلتُ: عمر.

فقال: أينَ أنتَ يا "**عمر بن الخطَّاب**" وأين ذاكَ الزَّمانُ المعطَّرُ؟ زمانُ محمَّدٍ وعمر!

فأدركتُ أنَّهُ ليس نفس الطَّبيب الذي أخبرَ أمِّي أنَّها مصابة بورمٍ في ثديّهَا، إنَّهُ إنسانيٌّ في تعامله، فقلتُ لَهُ:

ليتَ كلّ الأطِّباء مثلكَ!

وما إن تذكَّرتُ مرض أمِّي حتَّى تركتُ أصدقائِي وعُدت هاربًا من واقعِي، من عالمٍ تركتهُ خلفِي وأنا أعبرُ الجسر متثاقل الخطَى، جسر ملأتهُ صرخات الملاَيين أمثالِي على مرأى العيون، ومسمع الكون، ولا أحد يبالِي، أسيرُ على حافةِ الرَّصيف شارد الذِّهن، أعبرُ الطُّرقات لا أحد يشعرُ بمَا أشعرُ، ذاكَ يضحكُ وذاك يبتسمُ وأنا أتمزَّقُ داخلي،

فأحزاني أخفيتُهَا عن المارَّة، فحتَّى هم لَهُم أحزانهم وهُمُومهم لكن لاَ أحدَ يراهَا، لا أحد يعلمُهَا سوى ربُّ الكون...

عُدتُ إلى أمِّي وما إن وصلتُ عندها، بكيتُ وجثيتُ على ركبتيهَا قائلاً: لما كُنَّا صِغارًا علمتمُونَا أنَّ الذِّئبَ غدَّار، وأنّ الثَّعلب مكَّار، وأنَّ الأسد يحرس الغابة، ولما كبُرت يا أمَّاهُ، اكتشفتُ أنَّها صفة لبعضِ البشر الأشرار، لا يسمعون طائر الحسُّون ولا يرون صورتهُ الجميلة، يستعيرونَ تغريدتهُ حتّى في هواتفهم، تغريدة فلان وفلان...لا يرون من الطُّيور إلاَّ أشكالاً يجب اصطيادها ونسوا أنَّ الطيور على أشكالها تقع، لقد خرق كلامُ الطَّبيب صمام أذنِي: سمعتُ كيفَ فطرَ قلبكَ حين قال: أيامكَ معدودة، ونسيَ أنَّنَا كلَّنا عابرُو سبيل.

فردَّت عليَّ قائلةً: عندما يفقهونَ لغة طائر الحسُّون عند تغريده بالسَّلام، لا بالسِّهامِ عند مناجاتهِ بالحرية، حينها سيتحرَّر العالم من جهلهِ وقيودهِ، من نهمهِ وسطوتهِ، لا تبالي بهم يا بني فهذا قدر الله، لا تسقط ورقة إلاَّ بعلمِهِ، قد تسقطُ ورقة الطّبيب قبلي وهو لا يعلم!

سألتُ أمِّي:

-هل تناولت دواءك يا أمَّاه؟

- نعم يا بُني، لكنِّي سئمتُ مرارتهُ.

جلستُ معها على مائدةِ الفطور، مُستديرة الشَّكل عليها غطاء شفاف زهري اللَّون عليها بيضتين مسلوقتين في صحن، وفي صحنٍ آخر نفس الفطور لشخصٍ آخر، وقطع الخبز التَّقليدي رائحتهُ شهية لايزال ساخنًا، سألتُهَا وأنا على علمٍ بجوابِهَا: إنَّهُ فطور أبوكَ يرحمهُ الله، هيا خذهُ للبواب، لا تدع أباكَ ينتظر أكثر.

-كم أنتِ وفيَّة لحبِّ أبي، لم أرَ حُبًّا مثل هذا حتَّى في الأفلامِ تُشبيهينَ يعقوب عليه السّلام عندما قال لهُ بنوهُ:﴿ تَا الله تَفْتَأ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أو تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾.

كلُّ النِّساء لا تشبِهُكَ، فأنتِ نسخة لن تتكرَّر، أحببتِ أبي حيًّا وميّتا، ليت "**ماريا**" تتعلَّمُ منكِ!

وفي مساءِ ذلك اليوم، وكانت عقارب السَّاعة تشيرُ إلى الخامسة سَمعنا طرقات الباب، الطَرقة تلوى الأخرى، أسرعتُ إلى البابِ وفتَحتهُ دونَ أن أسأل، وإذا بِي أجد رجال الشُّرطةِ أمام الباب كأنَّهم أعمدة واقفة، مناكبهم عريضة، نظراتهم ثاقبة فيها شرارة لا تنبئ بالخير، تقدَّموا نحوي، وسألوني: هل أنت عمر؟

أجبت بكلِّ ثقة: نعم أنا "**عمر**" ثمَّ سألوني:

- أين كنت بالأمسِ حين انتصفت الشَّمس ورمت بخيوطها الذَّهبية؟ فقلت:

كنت في المتنزه وسط المدينة الفاضلة في مكان يسمَّى "عينُ الفوَّارة" عند نبع العينِ.

-أمسكني الشُّرطي المتقدِّم بقوّة من يدِي، وأمسك يداي بالسَّلاسل حتَّى لا أستطيع الهرب، وأخذ يجذبني بقوّةٍ، وبنبرةٍ شديدة: تعال معنا، وبدأت أردِّدُ: ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟

-تعالَ واصمت ستعرفُ حين وصولنا إلى مقر الشُّرطة.

تركت أمِّي تصرخ ورائِي منهارةً تماما، ابني لم يفعل شيئا، اتركوهُ...

نَظرَتْ إليَّ أمِّي والدُّموع تنهمرُ من عينيها، رُحت أصرخ: أمِّي أمِّي لا تقلقي...

سَمعتْ أمّي صرخاتي وردّت عليّ: نعم يا قرّة عيني بصوتٍ حزينٍ تُودِّعني بنغمات لم أفقهها يومًا، وقفَتْ أمّي بلاَ حراك كأنَّها تناديني لأعانقها وكيف أعانقهَا وأنا مشلولٌ من الألمِ، واليدين مكبلتين لم تشأ أمّي أنْ تظل جامدة بل أسرعت وعانقتني وراحت تقبّلني، كان ذلك العناق عناق وداعٍ قد جمَّد كل عضو بجسدي غير أنِّي بقيت صامدًا ولم أتحرَّك، كنتُ أسمع دقَّات قلبِها وهي تتسارعُ كأنَّها كانت تجري ولم أستطع أن أسمع شيء سوى تلك الدَّقات كأنَّ قلبها يصرخ من الألم، وقالت: لطالما مَنَحْتُك البسمة التي محوتُها عن شفتي، لطالما تظاهرت بالسّعادة أمامك وأنا لم أذق طعمها يومًا إلاَّ يوم ولادتك، أدركت أنَّ كأس صبرها قد امتلأ وفاض من كثرة العناء والتّعب..

ابتعدت أمّي فاحترقت اشتياقًا، فزاد ألم الوداع، حملت بيدها الأخرى صورة لي كأنَّها تقول لي هذا ما سَيُذكّرني بك يا بني وما سيذكّرُك بي هي تلك الذكريات السّعيدة التي جمعتنا يوما وجعلتني أمّا لك وجعلت منك ابنا لي، أخذني الشرطي وبدأ يجرُّني من ثيابي على مرآى العيون، ابتعدت أمّي، فأصبح الصَّمت بديلا للكلام، وفي تلك اللحظة وهي ماسكة حافة الباب، وبعدما كانت بكماء نطقت بالكلام صرخت منادية:

ابني إلى أين الرَّحيل؟ إلى أين الرَّحيل؟ إلى أين الرّحيل؟ لمن ستتركني يا بني... ونظرتُ في المرّة الثانيّة إلى خطيبتي "**ماريا**" التي تسكنُ بجوارنا وصلتْ في اللَّحظة المناسبة تعجبَّتْ وجحظت عُيُونها لما رأتني مكبَّلاً ورأت الشرطة تأخذني شتتوا أفكارها لم تفقه شيئا.

–رموني داخل سيارة الشُّرطة وجمع غفيرٌ من النّاس ينظر إليَّ نظرة إشفاق دون حراك من أحدٍ.

انطلقت السَّيارة وأنا أنظر إلى خطيبتِي بادلتني النَّظرات التَّائهة وأشَرْتُ بأصبعي إلى أمّي، فأدركت أنِّي أوصيها بأمِّي خيرًا، فهزّت برأسها نحو الأسفل كأنَّها تقول لي: لا تقلق يا حبيبي فأنا هنا بجانبها.

انطلقت السَّيارة حتَّى اختفت صورة أمّي وخطيبتِي... وصلنا المقر، أنزلني الشُّرطي من السَّيارة، وأمسكنِي من يدي وهو يمشي وأنا وراءه أمتثلُ للأوامر، أجلسنِي عند الباب ولم يترك لي فرصة الكلام أبدا، كأنّهُ يريد أن ينقضَّ عليَّ بنظراته التي أربكتني، فما كان عليَّ إلاّ الصَّمت والصَّبر، لم تكن لديَّ أمنية في ذلك الوقت غير العودة لأمِّي المريضة.

جاء دوري ودخلت. بدأت الاستجوابات مع الشّرطي:

ما هو اسمك بالكامل؟

–عمر.

ماذا تعمل؟

–لا شيء.

أين تسكن؟

–آخر المدينة.

أين كنت تجلس؟ .....؟.....؟.....؟

–كنت أجلس في وسط المدينة بجانب التِّمثال.

ما الذي أخذك إلى هناك؟

–أمِّي...

الشُّرطي: وهل أمّك كانت هناك عند التِّمثال؟

يردُّ عمر: لا لم تكن هناكَ، كنتُ أفكِّر بأمِّي المريضة بورم في الثدي حتَّى وجدتني أنظر إليهِ.

الشّرطي: إذن أنت من حطَّم جزءً من التِّمثال؟

عمر: عن أيِّ تمثال تتحدَّثونَ؟

-التِّمثال الذي كان في وسط عرصات المدينة.

عمر: اسألوا كبيرهم، لربَّما يُجيبكم؟؟؟

أظنُّهُ من فعل هذا بالتِّمثال؟ لقد فعلها قبل هذا الزَّمن.

الشُّرطي: كفاك استهزاءً، لا تثر زوبعتي، لا يوجد لا كبيرهم ولا صغيرهم، أنت من فعل ذلك يا عمر، كنت الوحيد هناكَ.

-هل ستضعونني في النَّار كما فعل الملك النَّمرود مع سيّدنا إبراهيم؟

-أصمت وكفاك ثرثرة، سأضعك في زنزانة الموت البطيء.

وإذا بملامح وجهي تتغيَّر وتأخذ من ألوان الفصول بركانا هادئا يسمعُ، ثمّ يثور على وجهِ الظلم، وإذ بصوتي ينفجر ويأخذ من الرَّعد قوّة صوته حين يعتلي البشر...

أنا بريء، لم أحطِّمْ شيئا، لا علاقة لي بشيء، أنا لا أتدخَّلُ في شيء لا يعنيني، ولا ألمِس شيئا لا يخصُّني، هكذا علَّمني أبي قبل أن يرحلَ.

أمّي أحبُّ إليَّ

أخذُوني إلى السِّجن دون رحمة، دون دليل إلاَّ لأنِّي كنتُ بجانب ذلك التّمثال الكاشفِ عن ثديي المرأة، فتذكّرتُ الورم الذي أصاب أمِّي في ثديها.

بقيتُ في زاوية السِّجن منكمش الجسم، مطأطأ الرّأس، أناجي لعلّ أمّي تسمع أنين الناي الآتي من الغاب، آه، يا أمَّاه لو تعلمين ما يحدثُ معي... أمّاه! قيّدوني، بل شدُّوا وثاقي وأرادوا تدمير ذاتي كأنّي شيء تافه في هذه الحياة، ما بال بنات الدّهر يطاردنني؟!

ألست إنسانا؟ ألست بشرا؟ أليس لديَّ قلبٌ يشعر؟

إنَّها أمّي، إنّها كرامتي، إنَّها جنَّتي.

أمَّاه ألبسوني ثوبًا ليس بمقاسِي، ألبسُوني ثوب الظُّلم، ووضعوا على يدي قيودًا لم أجرّبها من قبل، لم تردعهم الرَّحمة ولا الإنسانيَّة.

أين حقوق الإنسان؟ أم أنَّها شعارات خرساء باتت تبحر في بحر النِّسيان، لست حجرا بلا شعور، بل لي قلب ينبض حياة من أجلك يا أمّي...

نسوا أو تناسوا أنَّ لي أملاً، أنّ لي كوكبا لا يُشبه كلّ الكواكب، سيحزن من أجلي، إنَّها أمّي المريضة، ستبكيني، فلا معنى لحياتها بدوني، أنا نبضها في الحياة فلماذا تأسروني... أصبحت جسدا بلا روح... أسافر بلا زادٍ وأعبر محطَّة حياتي عبر جسور سجن لعين. لماذا تمسحوا البسمة من وجهِ أمّي، لماذا تحطِّموا أحلامها الوردية، فأنَا لم أحطِّم شيئًا.

كانت أمّي تحلمُ أن أكبر وأعمل وأشترى لها هديّة، فهي منذ زمن لم تعرف طعم الهدية، أهي مربعة الشّكل أم ثلاثيّة؟! منذ عهدك يا أبي ودَّعت أمّي كلّ الهدايا!

فقد ودَّعَتْ أمّي طعم الهدية، وأختي الصغيرة كذلك، فهي لم تداعب لعبة بعد فراق أبي، حلمت أن أكون درعها الواقي، أن أكون الأب والأخ الذي يحتويها، وإذا برصاص الظلم يرديني سجينا.

فكّوا قيودي فلست مجرمًا...

فكّوا قيودي فلست لتمثالكم محطِّمَا...

هأنذا أستعيد ما كانت أمّي قد أخبرتني به عن قصص في الجاهليَّة...إنّها خطيئة جاهليَّة. ظننت أنّها تحكيني زمنًا غابرا، وهو الآن يُحييني بهذه الحادثة، يحييني ظلما وقهراَ... ما بالكم تعبدون أشكالاً؟ تعبدون المال، تعبدون الأوثان، وتجعلون للحقيقة سربالا طويلاً...

أمّاه؛ ارفعي يديك إلى الأعلى، ودعواتك ارفعيها إلى ربِّ السَّماء ودعيها تبحر في سحب الضّباب، لتخترق الحجب وتعبر باب السَّماء... هأنذا أناشدك من بعيد، فقلبك يسمعني... فبَعْدك يا أمّاه ألغيتُ كلّ وجود في الوجود...

ردّ عليَّ الحارس من وراء القضبان:

سيجيب الله دعوة أمٍّ ثكلى مفجوعة بولدها، فإذا لم يبكها بشر، ستبكيها السَّماء...

وأدخل يده في جيبهِ فإذا هي بيضاء تلك المناديل، وأعطانِي واحدة، وقال: امسح دموعكَ، وهدئ من روعكَ، ولا تتعجّل ولا تستبق الأمور، فبعد العسر يسرا.

اخترقت كلماتهُ قلبي، فاطمأننتُ له، عاد الأمل إليَّ، رفعت رأسي صوبه ونظرت إليه، وهو يحدِّق بي مستعطفا حالي التي تبكي الحجر، وفجأة كأنِّي أسمعُ صوتا بداخلي لعلَّه دعاء أمِّي، انهض ولا تستسلم فالحياة معركة إمّا خاسر أو رابح، لازلت في بداية عبور الجسر، هيَّا أكمل، وإذا بملامح وجهي تتغيَّر وأنا أتجوّل وأسرح بأفكاري بعيدًا هنا وهناك علّني أجد مخرجا أو بصيص أمل.

وإذ بمُصْطَفاي يسألنِي:

إلى أين سرحت بك أفكارك يا عمر؟ إلى أين أوصلتك؟ إلى البرِّ أم إلى البحر؟ كيف ستعبر؟

فأنا الآن أعيش واقعا مرًّا، لا أدري إذا كنت في برّ الأمان، أم أنّي سأغرق في بحر المظلومين؟ أسامر الهموم وأساهرُ النُّجوم، مشتتة أفكاري، كيف ألملمها؟ بعدما كنت أصدّ كلّ البنات، أصبحتُ اليوم أفتح ذراعيّ بالحضن الدّافئ لبنات العين، أسامرهنّ ليلاً فيتركن لي مِلْحَهُنَّ. مسحت الدُّموع وضمَّدت الطّعنات وغسلتها بماء النّهر العذب البارد، لأعتاد على برودة المشاعر والصِّراع نحو بناء الأمل...هذا ما علّمني إيّاه مصطفاي حين أخاطبه منذ أن كنت طفلاً صغيرا...

إنّهُ مصطفاي ضميري الحيّ...

هأنذا أعيش حقيقتي، أعيش وجودي كما هو مسطَّر لي، أقرأ كلّ يومٍ صفحته دون علم منّي ماذا سيحدث لي في الصفحة الآتيّة، كم صفحة باقية؟ أنا لا أعلم؟ هل تعلمون أنتم كم صفحة باقيّة؟!

-إذا لماذا تعكرون صفو صفاحتكم وهي معدودة؟!

صفحتي اليوم مربّعة كهذه الجدران الباهتة اللّون، كأنّها الغيوم، وهذه النّافذة الذي تظهرُ أعلى الزّنزانة تتوسَّطُهَا أعمدة حديدية، منافذ الهواء منها قدر كتيّبٍ، تستطيعُ أن تخرج يدك لتعلنَ حريّتك لا رأسك، نافذة انفلتت منها رحلة ذكرياتِي مع أصدقائي، لم أكن أتوقّع أنّي سأعبر من هذا المكان عبر جسور الابتلاء، فحتَّى الهواء الذي كان يدخلُ من النّافذة كان يتلاعبُ بتلكَ الرّسائل الموجودة فوق سريري يأخذهَا يمينًا وشمالاً، وفي نفس الوقت كان يتلاعبُ بأنفاسي فتتصاعد حينا وتنخفض حينا آخر.

جلستُ متجمّدا في مكاني في زاوية ضيّقة أتأمّل هذه الحياة، أفترش الأرضَ الباردة، فحتَّى ملابسي كانت رقيقة لا تقيني برد الشِّتاء، أخذتُ أتساءل عمَّا سيحمله القدر لي في هذا المكان الذي لم يخطر ببالي يومًا، أنّي سأجد جسدي وروحي فيه، تنعيان الحظ والظلم...

سمعت صوتًا، رفعت رأسي بسرعةٍ، وإذ بي أرى حمامة بيضاء على النّافذة تنظُر إليَّ نظرة لم أفقهها، فلست سليمان الذي يفهم لغة الطّير، ولا داوود الذي يفهم منطق الطير فيحادثهُ، واصلت النَّظر إليها فشعرتُ كأنَّها تعاتبني، تلومني، تسألني: أين قمحنا؟ أين أرزنا؟ أين خبزنا؟ نظرت إليها والدُّموع تنهمر من عيوني وتذكرت ذلك المشهد الذي لايزال ماكثا في زاوية من ذاكرتي حين كنت أصعد وأمِّي إلى سطح المنزل حين الغيث، وحين الثَّلج، وحين الشَّمس ونتمتّع بذلك المنظر العجيب، حين ترمي تارة أمّي وتارةً أنا، نرمي حبات القمح أو الأرز أو فتات الخبز للحمام، ونبتعد وننظر ونتسابق من يأتيه عدد كبيرٌ من الحمام؟ نحسب كلّ لون: الأبيض والرمادي والمختلط، وإذا بأمّي

في كلّ مرّة تسبقني، كلّما رمت حبَّات القمح أو الأرز يتكاثر حولها عدد كبير من الحمام دون خوفٍ منها، كأنَّها صديقة وفيّة ألفن لقاءها، تدني منهنّ ويدنين منها، يا له من منظر جميل!

-كم تمنّيت لو يعود ذلك الزّمان وأعانق فيه تلك اللحظات السَّعيدة، لكن زمن السّعادة دائمًا قصير كأنّه رمشة عين... هو زمانك يا أمّي.

قمت إلى تلك الحمامة لأقترب منها، وأحادثها لعلّها تأخذُ رسالتي إلى أمّي أنّي اشتقت إليها، وما إن وقفتُ واقتربتُ حتَّى فرّت هاربةً منّي كما هربت منّي سعادتي دون سابق إنذار، نظرتُ إليها وهي تحلّقُ وتمنّيت لو كان لي جناحين مثلها لأطير وأتخلّص من هذا السِّجن الذي كسر قلب أمّي قبل أن يكسرني، لكن الأمنيات في بعض الأحيان تكونُ مستحيلة....

أسدل اللَّيلُ ستارهُ وعمَّت السَّكينة والهدوء التّام المكان، إلاَّ أنَّ نفسي لم تسكن ولم تألف هذا المكان بعدُ، فالفراش ليس فراشي والغطاء ليس غطائي، فكيف أغفُو على وسادة فيها رائحة غريبة كلَّما وضعت رأسي عليها أصبت بالدُّوار، فلم يعرف الذي سبقني أين يضعُ رجلهُ، يقلبُ فراشهُ فتكون جهة الرّجلين للرأسِ وجهة الرّأس للرجلين، فتصبح كلتا الجهتين مقرفة، لازلت أعيش القلق والخوف من الآتي، انتشَيتُ من خمر السَّهر حتَّى انتصفَ عُمْر اللَّيلِ، فما وجدتُ من أجفانِي إلاَّ الجفاء، أطبِقُها فتُفتح كأنَّ سيرتها الفتحُ، توسدتُ ذراعِي فأثقلها رأسي بالهُموم، نزعتها واتّكأتُ على الجدارِ فوجدتهُ أشدُّ قسوةً، ولما مضى من اللَّيلِ صَدرُهُ جلستُ أسَامرُ ضُيوفي فما زارني في تلك

اللَّيلة إلاّ بنات اللَّيل وبنت العينِ إلى أن غيَّرتُ مكانِي وجلستُ مُقابلا لنُور القمر فشعرتُ بشعورٍ مختلِف كأنّه يُواسيني، فرغمَ الغرفة الضيّقة، والظَّلام الحالك فيها إلاّ أنِيّ كنت أنظر إلى ذلك النُّور، الدَّاخل من النَّافذة المنبعث من السَّماء على أنَّه بصيص أمل يجب أن أتشبّث به. ثمَّ استليقت على فراشِي كأنيّ جثّة هامدة من التَّعب، كلّ شيء فيَّ أعلن استسلامه إلاّ العقل أخذ يفكّر ويفكِّرُ، فضجيج الأفكار بتُّ أسمعه، وبدأت معه أستعيد شريط ذكرياتي.

كانت أمّي بعيدة إلاّ أنيّ كنت أشعر بحضورها معي حين صلاتي، حين دعائي، حين مناجاتي.

كُلَّما جئتُ إلى فراشي، وقبل أن أضع رأسي على الوسادة تراودُني صُورة أمّي، فما نمت وما غلقت بابا يومًا قبل تقبِيلها وأخذِ رضاها، غابت صورة أمِّي ودفؤها وحنانها، لكن تلك اللَّحظات تزاحمُني وتسرق منّي النَّوم، فما أطبقت جفني إلاّ وهي آخر صورة تُداعبني، طلّقتُ كلّ الأمنيات إلى حين وتمسّكتُ بواحدة أن أكون مع أمِّي، أن أراها بخير، وأخذت الذّكريات تعود إليَّ معهَا حين تبتسمُ لي رغم الألمِ، تظمأ هي من أجل أن تروي رُوحِي. إنّها العطاء الدائم، وأنا على هذه الذّكريات غفوت على أمل يومٍ جديد يحمل لنا تباشير صبح جديد، استلقيتُ على فراشي كجثَّةٍ هامدة.

السِّجنُ والسَّجَّانُ

أفقتُ على صوتِ ذلك الحارس الطَّويل القامة، عريضُ الكتفين، له عينين سوداوين كأنَّهما نقطتين في حرف التّاء، أنفهُ غليظ، على أرنبتهِ سينٌ خُطَّت أوسطها وسطَ أنفهِ، كأنَّ شاربهُ اكتحل من اللّيلِ، كلّما تكلّم تشمّر شاربهُ إلى أعلى من يمينهِ ويساره:

– صباح الخير يا "**عمر**"...

فتفاءلت بهذه الكلمات، وقلت: خيرا إن شاء الله.

وقلتُ: صباح الخير لمن؟ لابتسامتي.

الحارس: عجبا أو تلقي التحيّة على ابتسامتك؟

عمر: نعم صباح الخيرِ لمن ودَّعْتُ صَوتها ولم أوَدِّع صُورتَهَا، لمن تركتُهَا واختفيت أنظرُ الصَّباح وحدي.

الحارس: آه فهمت محبوبتك، أاشتقت إليها إلى هذه الدّرجة لتلقي عليها التّحيّة من بعيد في كلّ يوم، أصبحت مجنون ليلى، أو عنترة عبلة...

عمر: نعم إنَّها محبوبتِي الأولى والأخيرة، إنَّها أمِّي...

رفع الحارس حاجبيه السَّوداوين وهزَّ رأسه وتنهدَ تنهيدة كادت تأخذُ أنفاسه، وقال لي: صدقت، ثمّ سألني:

ما الذي يذكّرك بها؟

فلقتُ: إنَّه مصطفاي.

الحارس: مصطفاكَ! أين هو مصطفَاكَ؟ لا أرى أحدًا معنا وأخذ الحارس يتحدَّث بينه وبين نفسه أتراه جنّ أم ماذا؟ فقد عقله المسكين بين جدران هذه الزنزانة، لا يزال شابا يافعا، ليس هذا مكانهُ.

عمر: إنَّه مصطفايَ ومصطفاكَ الذي يحدُّثك الآن، فأيقنَّ الحارس أنَّ "عمر" ليس كغيره من أترابِهِ مادام لديه مصطفاه فهو لبس عقل ذوو الألباب بردة، ففي كلامه حكمة، وفي نبراته صحوة.

قال: هل تناولت فطورك يا صاح؟

عمر: يكفيني أنّي ارتشفت فنجانًا من الوحدةِ ممزوجًا بقطعة من الشَّوق لقهوة أمِّي وحليب أمّي ودردشة أمّي وخُبزَ أمِّي...

كلّ يومٍ أحلِّيهِ بِقطعة من الهموم؛ هذا هو فطوري اليومي، لأنّي أعرف أنّ أمّي لن تفطر بدوني، من سيشعرُ بي غيرُها، من يشعرُ بالبرد الذي أشعر بهِ الآن غيرها، لم يهجعْ جوعي، من يشعرُ بهِ غيرُهَا رغم المسافات البعيدة بيني وبينها لكنّها تشعرُ بي لا يزال ذلك السرُّ الذي أوجدهُ الله فينا يوم كنت موصولاً بحبلها السرِّي قائما موصولا، لا يفهم هذه اللّغة إلاّ من كانت له أمّ مثل أمِّي، أيّ حبٍّ هذا يا "عمر"؟

-يا صاحبي؛ الأمّ هي المرأة الوحيدة التي تظهرُ أمامها بكلِّ الحالات، مُتَّسِخا أو نظيفًا تُحبُّكَ، فقِيرًا أو غنيًّا تُحبّك، مَريضًا أو صحيحًا تحبّك، حيًّا أو ميّتًا تحبّك، هي الوحيدة التي تتقبّلك بكلّ الحالات، مجنونًا أو عاقلا وتعرف صِدقكَ وكذبك في كلِّ الحالات الوحيدة التي لا تحتاج لجهاز كشفِ الكذب أو الصِّدق لديكَ.

أمَّا باقي النِّساء فكما تكون لهنَّ يكنَّ لكَ، إذا كنت سكّرًا يكنَّ عسلاً، وإذا كنت علقمًا يكنَّ حنظلا، فكن أنت الأمير يكنَّ هنَّ الأميرات، مع أنَّ زمن الأميرات قد ولَّى، فهل يعود مع إحداهنَّ؟

لقد قلَّبت عليَّ المواجع، وطالت ساعات اللَّيل يا صاحبي فالدَّقيقة التي لم نكن نعبأ بها خارجاً أصبَحتْ ساعة وأصْبَحتُ أدرك قيمة الوقت وقيمة كلّ شيء.

أصبح حديثي مع الحارس جذّاب يستهويهِ، نتجاذبُ أطراف الحديث من وراء الباب عن سبب اعتقالي، عن ظروفي، عن حياتي أصبح يعرف كلّ شيء عنّي، كأنّه طبيب نفساني، استرحت لما تحدّثت معه بصدقٍ، وهو يستمع إليّ دون أن يقاطعني إلى أن سكت الكلام، نظر إليّ نظرة متفحّصٍ ليس لحالتي الصحيّة وإنّما إلى شخصيَّتي.

بدأ يسألني أسئلة لم أعرف أين أصنّفها إلى الوجودية أم إلى الفلسفية، وشرط عليَّ شرطًا واحدًا وهو أن أتريَّث قبل أن أجيب، وكان أوّل سؤال:

-من وُجدت الأولى البيضة أم الدَّجاجة؟

استغربت من سُؤاله، وقلت: ما أدراني وما حاجتي إلى هذا السُّؤال، هذا مضيعة للوقت؟

-من هي الأمّ؟ الأرض أم الوطن أم التي أنجبت يا عمر؟

-هي أمّي التي أنجبتنِي.

-من نحن؟ ومن هم؟

-هم الجنُّ ونحنُ البشر.

-كيف نكتبُ فوق السَّحاب؟

-أتظنُّني أبلهًا أم أنّك تكسر روتين وقتك أيُّها الحارس؟ يا هذا توقَّف عن هذه الأسئلة التَّعجيزيّة.

يواصلُ الحارس أسئلته، ويترك "**عمر**" في حيرة استنفذت طاقة صبره.

-كيف نرسم سفينة فوق البحر؟

-كيف تولد الفكرة؟

لماذا الميم دائرية؟ فاستوقفته ونطقت بالإجابة لهفة لأنّي تذكَّرت قول أمّي:

«احفظ الميم جيّدًا تحفظ نفسك: مَا رأيتُ، مَا سمعتُ، مَا تكلّمتُ»، ورغم أنِّي حفظتُها جيّدا إلاَّ أنّني وجدتُ نفسي داخِلَها، لا أعرفُ كيف أخرج من عنق زجاجة الميم؟

-صبرًا دعني أكمل السُّؤال ولا تتعجّل بالجواب، لعلّك ستعرفُ سرا من أسرار الحياة في هذه الزنزانة.

-لماذا الميم دائرية، والباء، والتَّاء والثَّاء منبسطة، والضَّاد في ضرب بدون عصا، مع أنّك تُضرب بها، والظلم بالعصا؟

-لا أعرف، لو كنت أعرف لما كنتُ هنا.

سكنَ اللِّسان وتاه السُّؤال في غيابة الجبِّ.

-أرهقْتَني بأسئلتك أيُّها الحارس ولم أفهم مقصدك!

-سأنبِّئك بتأويل ما لم تسطع عليه صبرا يا "**عمر**"

السُّؤال الأوّل جدل عقيم فلا تدخل فيه ولا تدخل فِيكَ فيه إلاَّ بما يكفيكَ.

الثّاني: الأمُّ.

-الأمّ هي الأرض؛ هي الوطن؛ هي التي أنجبت.

-ما الدّليلُ؟

الحارس: الأمّ كالوطن كالأرض وليس يُمكننا العيش بلا وطن.

ثمّ يعود الحارس لأسئلتهِ، كأنّه يريد إفراغ جعبة ممتلئة: هل تستطيع أن تقرأ في الظلام؟

-ماذا أقرأ؟ إذا كان قدري فسأقرأهُ بنور بصيرتي.

-ما الذِّكريات؟

-هي قطع صغيرة من ماضينا تذوبُ مع الزَّمن، يبقى منها الجميل كالمدينة الفاضلة والأسوأ ينقش على كفِّ اليد، كلّما بسطتها أبصرتهُ.

-ما الحياة؟

-الحياة نغمة موسيقية إيقاعها أعصاب الرُّوح وآلتها الطِّين، فهل نعيش بالرُّوح أم بالطِّين؟ فهما اثنان ليس لهما ثالث.

فما كان لهذه الفلسفة والتّساؤلات إلاّ لأجل هدف وحيدٍ وهو الحكمة من دخول "عمر" السّجن.

-هذا آخر سُؤال به تبرئ نفسك من هذه التُّهمة.

-هل أنت طين، هل أنت روح؟

إذا قُلتَ طين، فأنت وهذا الجدار سواء، وإذا قلت روح فأنت تسمو بهذه الرُّوح، فما هو سِجْنُها؟ فالسّجنُ للطّينِ ليس للرّوح.

سكت حتَّى الكلام حينها ولم يجد الكلمات ليعبِّر، ومنذ ذلك اليوم أصبحت أدرك أنّ كل شخص يهدِّم ما تبنيه المودَّة والرَّحمة هو سجين هذه الحياة، فكيف للشَّخص أن يكون سجينا وهو الذي يبني السِّجن بيديه؟ فالسِّجن ليس أربعة جدران، بل هو سجن تصنعه أنت لأفكارك

وطموحاتك واعتقاداتك، انظر إلى ذلك الغربي الذي قيَّد نفسه وروحه بعبادة غير الله، فلو أطلق العنان لروحه لتبحث عن واجدها وموجودها، وأطلق العنان لفكره ليتأمّل هذا الكون كيف أوجدهُ الله لوجد الله، فأطلق العنان لمخيَّلتك وأفكارك وأبدع ولا تكن كالذي مرَّ على حديثٍ فلم يأخذ منهُ غير ذبذبات الصّوت.

وبعد حديثي الشيّق مع الحارس طلبت منه أن يحضر لي كراسة وقلم، وبدأت اكتب مصيري، أعبر بحر الدّموع، وأصنع بيدي اليسرى من ظُلمهم قارب الغرق... نعم إنّه قارب الغرق... حين اقتربت من ذلك التِّمثال شعرت ببرودة النِّساء وبدفء أمّي! بغرور النِّساءِ...بكيدهنَّ.... بمكرهنَّ... بإخلاص أمِّي...

الحارس: ستذهب إلى دار الحق.

سأذهب لكنَّني "**لن أتكلَّم حتَّى يحضر عمر**".

لن أتكلَّم حتَّى يحضر عمر

في اليوم الموالِي حضرَ الشُّرطِي من أجلِ أخذي، فسألتُهُ: إلى أين الوُجهة يا شرطي؟

-الوجهة إلى المحكمة.

المحكمة والقاضي وعمر:

دخلَ "**عمر**" المحكمة وهو واثقٌ من نفسِهِ، لقد رفع الحارس من معنوياته رفعا كبيرا.

جلس "عمر" وهو ينظر إلى أمِّهِ بابتسامة مُشرِقة، التقت العيون وتبادلا النَّظرات، وأطلقا العنان للُّغة العيون التي لا تخطئ التَّعبير، فرِحَتْ الأمُّ وأيَقنَتْ براءة ابنها، ولكنَّ شوقها لضمِّه ظاهر على وجهها.

كانت القاعةُ كبيرة جدًا مُمتلئةٌ على آخرِهَا، طاولة الحكم مقابلة لبابِ الدُّخولِ، عليهَا أماكن ثلاثة أشخاص القاضي ومساعديه في الحكم، يتوسَّطُها مكان قاضي الدِّفاع مع موكِّلِهِ وقاضي الاتِّهام ومُوكِّليهِ، وبعد حوالي مترا يُوجد الحضور يجلسُون على كراسي خشبيَّة، أكثُرهم نساء، لكنَّ "**عمر**" نظر إلى أمِّه فقط وحين نظر إليها ارتسَمتْ على محيَّاها الابتسامة، فنسجت ملامحها وتجاعيد وجهها خريطة الأمل والتَّفاؤُل، ثُمَّ أشاح بوجهِهِ إلى الحضور وسبب حضورهم، أمِنَ أجل الرُّوح أم الطِّين؟

وكأنَّهُ حين رأى أمَّهُ ابتلعَ الحُزن وأخذ جرعة مُسكِّن، فالتَّظاهر في زمن المظاهر أصبح مسرحًا بلا خشبة.

لاحظ وسائل الإعلام على اختلاف أصنافها سمعيَّة بصرية تُشاهد المسرحيَّة، أوجس في نفسه خيفة، وبدأ يُكلِّم مصطفاه:

حزني...فرحي...ظلمي...

مصطفى: الحزن عابر سبيل.... الفرح عابر سبيل...

– ماذا فعلت أنا؟ نسي الطّين ساعة أنّه طينٌ...

دخل القاضي وهو يرتدي لباس القضاة الأسود، جلس مكانه صمت الجميع، أخذ تلك المطرقة وضرب ضربة قويَّة لتبدأ المرافعة.

عاد "**عمرُ**" إلى طبيعته الأولى الخوف والقلق والاضطراب، نظر إلى القاضي فانتابه الخوف لرؤيته مستعدا معتدلا في جلوسه محدقا ببصره إلى الجميع واثقا من نفسه.

سأل **عمر** مصطفاه: أين نحن؟

مصطفى: نحن في دار الحقِّ يا عمر.

عمر: إذا كنّا في دار الحقِّ، أين هو؟ لا أراه جالسًا معنا أخافُ أن أظلم وأنا في دارِه، أريدُ أن أراه حتَّى أكونَ في حضرتِهِ حتَّى ينتصر لي.

مصطفى: هذه هي داره، لكن ننتظر ونصبر، فنحنُ لا نعرف إذا كان موجودا أم غائبا أم مغيَّبا.

القاضي: هات ما عندكَ يا محامِي الدِّفاع، وقبل ذلك أوقف موكِّلك ليُقسم على قولِ الحقيقة.

وقف "عمر"، وقال في نفسهِ ما دام أنّهُ القسم سأتكلّم:

–أقسِمْ بالله أن أقول الحقيقة لا غير.

––أقسمُ بالله أن أقول الحقيقة لا غير.

المحامي: سيّدي القاضي، إنّ موكّلي البالغِ من العمر ثلاث وثلاثين سنةً مريضٌ وكان يُعاني من اضطرابات نفسيّة في ذلك اليوم حتَّى أنَّهُ لا يتذكَّرُ ما فعله في تلك اللّحظة، لقد علم بمرضِ أمّهِ والتقرير الطبي يوضِّح ذلك.

ثارَ "**عمر**" وكانت نرفزة "**عمر**" نرفزة لذيذة تُشبِهُ احتساء عصير حبَّة ليمونة حامضة، يثور وقت الظُّلم فقال:

– لالا يا سيّدي أنا لم أفعل شيئا؛ لست مخبولاً ولا مريضًا.

القاضي: أُصمت ولا تتدخّل وإلاّ أخرجتك من القاعة.

تدخّل محامي "عمر" أنت تعرفُ أيّها القاضي أنَّنا غالبيتنا يتّصفُ بالنَّرفزة لكنَّها نرفزة في محلّها، تحضر وقت الظُّلم فقط.

صمت عمرُ خوفا على أمّهِ من القلق الذي كان باديا عليها، كأنّه يمسك قلبها بين يديه وهو يزداد خفقانا، وتذكّر قول الحارس الصّبر ثمّ الصبر ثمّ الصبر، فاستكان وسكت عن عمر الغضب.

أوقفَ القاضي عمر وانهالت عليهِ الأسئلة ضربا باليمين:

–ما اسمكَ؟

–عُمَرُ، ولأوَّل مرَّة يرفعُ عمر اسمه كان دائمًا يسكِّنُ آخرهُ فيقول: عُمرْ

وقفَ الجميعُ في القاعة لما سمعوا اسم "**عمر**" خوفا فهو الذي لُقب بالفاروق لأنّهُ فرّق بين الحقِّ والباطلِ، نسيَ القاضي نفسهُ وقفَ هو الآخر في دهشة، كأنَّ الجميع يقفُ لتحيّة النَّشيد الوطني، لا أحد تكلَّم، أدركَ القاضي نفسَهُ فضرب بمطرقته وقال: جلوس جلسوا، ولكنّه

هو الواقفُ الوحيد... كثرت قهقهة في القاعة، نظر هنا وهناك فوجد نفسه الواقف الوحيد، ثمَّ أكمل أسئلتهُ:

-ما عمرك؟

-لم أولد بعد؟

-أين مسكنك؟

-كيف أعرف لم أعبر جسري بعد!

-كيفَ عرفت الضّحيّة؟

-هي من طين وأنا من طين.

-ماذا حدث بينكُمَا؟

«لَنْ أتكلَّم حتَّى يحضُرَ عُمَر»

وقفَ الجميعُ مرَّة ثانيَّةً ونظروا إلى البابِ في انتظار عُمر، وقف معهم القاضي للمرَّةِ الثَّانيَّةِ دون أن يشعر، ولما أدركَ نفسه أخذ المطرق مرّة ثانيّة وضرب ضربةً قويَّة على المكتب الخشبي حتَّى كُسر جزء منه وقال:

-جُلوس، لا أحد يقف مرّة أخرى، وإلاَّ أخرجتُ الجميعُ وأعلنتُ الحكم عليه لوحدي.

-إمَّا أنّك المجنون الوحيدُ في القاعة أو أنّنا نحن المجانين!

-ألستَ أنتَ عُمر؟!

-أنا أحملُ اسْمُهُ فقط، لذلكَ «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**» فبدُونِه سيُحكم عليَّ ظُلمًا...

أجلس القاضي "عمر" وطلب منهُ الصَّمت لأنّه أفقدهُ عقله وسمح لمحامي الدِّفاع عنهُ بالمواصلة.

-ألم أقل لكم يا سيّدي القاضي أنَّ موكّلي مريض نفسيًا أو يُمكن أن تعتبروه مجنونا، ألم تقل أنتَ ذلكَ؟!

-إنَّهُ يدَّعي ذلك أكمل المرافعة ليس هو الوحيد هناك قضايا أخرى عالقة.

أضاف مُحامي "**عمر**" دليلاً آخر لقاضي المحكمة:

يا سيّدي القاضي ضربَ المدينة زلزال في ذلك اليوم، ويُمكن أن يكون الزّلزال سبب في تحطيم جزءٍ من التّمثال.

القاضي: ضع التّقرير الطّبي أمامي، وضع ورقة قياس الزّلزال لأنظر فيه وأحكم، ثمّ أعطى الكلمة لمحامي التّمثال.

-سيّدي القاضي ما قام به الجاني جريمة كبرى في حقّ التّمثال بأيّ حقٍ يكسرها؟ إنّه لا يحترمُ تراث الأمم، نُطالِب بأقصى العقوبة، حتَّى وإن كانت حالته الصّحيّة مضطربة، فهذه ممتلكات وأثريات لا يمكن امتلاكها بسهولة.

-ألم أقل لكُم «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**».

وقفَ جميعُ الحُضورِ للمرَّة الثَّالثة إلاَّ القاضِي، أخذ يطرق بقوةٍ بمطرقته التي تشبه رأس حيوانٍ مفترس، فانكسر جزء أكبر من طاولةِ الحكمِ وقال: أخرِجُوا الحضور حتَّى نستطيع إكمال المرافعة، ما هذه المهزلة؟

نطق الجميعُ: «**لن نخرُجَ حتّى يحضُرَ عُمر**» أصبحت هذه الجملة على لسان أهل المدينة كُلِّهَا، فكلَّما ظُلِمَ أحد يقول لظالمِهِ: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**» وكان يقصد بها عدلهُ فهو الذي فرَّقَ بين الحقِّ والباطل.

-اجلسُوا إذن واصمتوا، قضيتُ ثلاثين عامًا في القضاء ولم يحدث معي مثلما يحدثُ الآن، اخرجوا جميعا (وضرب بمطرقته المكتب الخشبي) رُفعت الجلسة وشدّوا ألسنتكم قبل أن تخرجوا سنرى ما يمكن أن تسفرَ عنه المشاورات الدَّاخليّة بعد ساعة من الزَّمنِ.

خرج الجميع وهم يردّدُون جملة عمر الشَّهيرة: «**لن نتكلَّم حتَّى يحضُر عُمَر**»

لقد فقدتُ الأمل في هذا المحامي الذي لا يُحسن حتَّى الدفاع عن موكله: «**المكان مناسب والرَّجل غير مناسب**».

جلس المحامي بجانبي وأخذ يهمسُ في أذني: لماذا ذكرت تلكَ الجملة؟ هل تودُّ أن تدَّعي الجنون، هذا يسهِّلُ علينَا الطَّريق فقلتُ: بربّكَ ألا تعرفُ "عمر" الذي أتحدَّثُ عنهُ.

-أنتَ "**عمر**"، فقلتُ له: لو تخلع هذه العباءة وتترك هذا المنصب لكان أفضل لك إذا كُنتَ لا تعرفُ عُمر، فما قصدتُ بجملتِي «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**»، قصدتُ بِها حضور العدلِ والحكم به.

لا تَبتئِسْ يا "**عمر**" إنَّ الله معنا.

فاض بي الشَّوق إلى المولى، واغرَورَقتْ عيناي بالدُّموع وناجيت ربِّي إنِّي مظلوم فانتصر، فاطمأنَّ قلبي وندمت لأنّي ظلمت المحامي بتفكيري المضطرب فهو لم يجد دليلا آخر غير هذا لكنَّه واثقٌ من براءتي.

سمع "**عمر**" تنهيدةَ أمِّهِ التي تهدُّ الجبال من وقعِهَا لأنَّهَا نابعة من عُمقِ قلب أمٍّ محروقة على فلذةِ كبدها، نظر إليها، فلمحها تُحدِّق إلى الجميع والحزن يلون صفحته على وجهها الجميل، وإذا بالدُّموع تملؤ عينيهَا ثم تنسكِبُ لتغسلَ القلوب الظَّالمة، لتغسل ذلك الاسوداد لعلَّ

القلوب تلين وترأف بأمٍّ وحيدة تُكابِدُ مشاغلَ الحياة وحدها، وإذا بها تبتلع غصّتها ببطء شديدٍ، وكلَّما بلعت غُصَّة أغمضت عينيها فانسكبت الدُّموع على وجنتيْهَا التِي تظهر لمعانا كأنّها نجوم تلمع في ظلام ليلٍ حالكٍ، ثمّ رمقت القاضي بنظرة تأنيب كأنَّها تعاتبه لتماطلهِ في القضيَّةِ، تُعاتبه لجعل ابنها في السِّجن وهو الذي لم يتجاوز عمر الشَّباب، وتتساءل هل سينطفئ نور شبابه في هذا السِّجن.

عاد الحضور مرَّة ثانية إلى أماكنهم وعاد القاضي ومُساعديه على اليمين وعلى الشِّمال، والكلّ يترقَّب قراره، تأزَّمت الأمور، ولم تظهر الحقيقة لا على لسان المحامِي ولا على لسان المظلوم ولا على لسان القاضي، أعاد مُحامي التّمثال السُّؤال لعمر: لماذا جزءًا من كسرت التِّمثال؟

نطق حينها "**عمر**": أرأيتني كسرتهُ بيدِي، ردَّ محامي التِّمثال: لا.

أرأيتَ لما كسر القاضي المكتب وهو يرافعني، قال: نعم.

فقلت: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**»، وفي ذلك الوقت ثار غضبُ القاضي علنًا لكنَّهُ أدرك فطنة "عمر" فلا أحد تكلَّم لما كسر هو المكتب الخشبي ورفع الجلسة، وقال:

أظنّ أنَّ عمرها طويل هذه القضيَّة تنتظر مثلما ينتظرُ الجميع «**ولن تتكلّم حتّى يحضُر عمر**».

جاء اليوم الموعود الكلُّ ينتظرُ قرار وحكم القاضي، يعتلي القاضي منصَّة المرافعة، والشَّمس تبثُّ خيوطها الذّهبية عبر نوافذ المحكمة كأنّها تناشدهم هي الأخرى بالحقيقة، فالشَّمس رغم مغيبها فهي تشرق في كلّ يوم وعلى الجميع دون استثناء....

يقول القاضي:

– بعدما ورد من آراء ودلائل، وبعد أخذ وردٍّ لاتزال الحقيقة تبحث عن طريقها، لم نصل إلى حكمٍ بعد، لذلك سنأخذ طريقا آخر لعلّنا نلتقي فيه بالحقيقة فنعانقها، عناق الغائب الذي لطالما انتظرنا عودته بلهفةٍ، فحتَّى نحن «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**» ولهذا الأمر وصلنا إلى إصدار قرارين وحكم في هذا اليوم.

فكان الآتي:

... بعد أخذ ورد اتَّفق قُضاة المحكمةِ العليا في هذه القضية التي لم نجد لها شاهدا ولا تفسيرا ولا حلاً؟؟؟ هذه القضيّة التي تحمل ألغاز البشرية في معاناتها، في عِراكها مع الظُّلم والقهر، هذه المعاناة التي تروي صبر أبطالها ليقينهم بانجلاء اللّيلِ، فمهما طال اللَّيل، واكتحل البدر بسواده، فلابدّ للصّبح أن يتنفَّس، وينثر نسماته على القلوب النّدية عبر جسور الحقّ.

– لا يزالُ المتهمُ "عمر" يعيش بين جِسري الاتّهام والبراءة ولعبوره فهو يحتاج إلى وقت أطول، لذلك نعلمكم بالقرار الأوّل والثَّاني لعلَّنا نصل إلى الحُكم:

فأمّا القرار الأوَّل فهو:

–إحضار التِّمثال إلى المحكمة، وإعادته إلى هيئته الأولى...

اندهش الجميعُ ووقف البعض من هول الدَّهشةِ، بدأت التمتمات بينهم بين صوت خافتٍ وصوت مسموعٍ:

–هل سيتكلَّمُ التِّمثالُ؟

– قهقهت النّساء تسمع!

– هل سينطق ويُخبر من حطَّمهُ؟ نظرات بين متعجِّب ومستغرب...

نطق "**عمر**" وقال: ومن سيعيد لي أيّام شبابي التي تضيع بين زنزانة الاتّهام؟

صرخ في وجهه القاضي وطلب منه الصَّمتُ والتزام الأوامر، ثمّ واصل كلامه:

– أمَّا القرارُ الثّاني فهو رفع القضيّة إلى أعلى هرمٍ في المدينة واستئذانه في وضع جائزة كبرى لمن يأتي بالحقيقة ويُحضر "عمر" التي يتكلَّم عنه السّجين "عمر" في جملتهِ: «**لن أتكلَّم حتَّى يحضر عمر**».

عمر: ومن يرمّم نفسي التي كسرت؟ من يُجبر خاطر أمِّي؟

تنطق الأمّ أمام الملأ:

من يُرمَّم شباب ابني الضَّائع بين جسور المتاهات؟

تمنّيت لو أنّ الزّمن توقَّف لأسترجع أنفاسي، لكنّ الزّمن لم يكن يوما بشرا ليفهمني، فحتّى البشر لا يفهمونني. فكيف يفهمني من ليس له روح؟

رأيتُ القضيّة تكبر وتكبرُ، فكبرت أحزاني معي وشاخت قبل أن أشيخ أنا، تركُوني في زنزانة القهر والوحدة والرِّفقة السّيئة، تتبدّد أحلامي، وتنقضي أيامي، أدركت حينها أنّ الشّين لازالت هاربة من هذا العالم الذي يتهاوى في قيَمهِ، في أخلاقه، في حقوقه.

أخذت وسائل الإعلام الخبر طازجا، وإذا بك تجده على التِّلفاز والإذاعة والجرائد ومواقع التَّواصل الانفصالي، بلغَ العالم كيف أنَّهم كسروا قلب الأمِّ، فتشوّه العالم واضطرب التَّفكير ولم يعد بالإمكان التَّفريق بين

الجبر والكسر في الرّياضيات، وبين الجبر والكسر للقلوب... أصبحت النّشرة لأحوالهم الجويَّة، تأتيهم في كلّ وقت.

ها هو ذا العالم يضطرب ولا يعرف سبب اضطرابه أهو الزّيفُ أم السيفُ، سيف الوقت الذي قطع بنا أشواطا دون أن ندري في أيِّ زمانٍ نحنُ، إلى أيِّ صدر نَحِنُّ إلى صدر الأمّ الأولى؟ أم إلى صدر الأمّ الثانيّة التي صنع مِنها التّمثال؟ «الطِّينُ»... نعم إنَّه التُّربة الحمراء التي نسقيهَا بدمنا، بعرقنا، نتوارثهَا حُبًّا وعشقًا... إنَّها التربة الزّكيّة...

هذا هو الطِّين الذي سينطقُ غدا، ويقول أنا بريء مِمَّا تقولُونَ أليس هو ضَمَّتُنا الأخيرة حين نتلحفُ الثَّرى؟، أنحتاج إلى سعادةٍ مؤقتةٍ أم سعادة دائمة؟ تلك هي أسئلة تراود "**عمر**" عن نفسه فلا استطاع أن يغلّق الأبواب ولا أن يقول لها هيتَ لكْ.... معركة بداخلهِ أسلحتها الفكر لا غير...

استمرّ الحال على جسور العمر الذي ينقضي من حياة "عمر" أيّاما وشهورا إلى أن عقدت الجلسة الثّانيّة، أصبحت أمنيتهُ الوحيدة أن يكون حرًّا يمشي في الطُّرقات وهو يستنشِقُ الهواء، أصبحت أمنيتهُ أن يكون مع أمّه التي تعاني المرض لوحدِها ولا أحد يشعُر بمعَاناتها، فأصبحت بين النّاس جدران وجدران من الحجارة...

في يومِ سبتٍ وعلى السَّاعة التّاسعةِ صباحًا أُحضر التِّمثال إلى المحكمةِ، وأصبحت له مكانة خاصَّة فها حتّى يراه الحضور، فقد تربَّع على عرشها، دخل الجميع إلى المحكمة، وإذا بك ترى أعين النّاس سُكارى، وما هم بسكارَى، ولكنّ التِّمثال فاجأهم أخذت النَّظرات تلمحهُ مرَّة واحدة وتُطأطئ رأسها خجلاً من منظر التّمثال الذي

يصف جسد المرأة، لأنَّ القاعة كان فيها رجال ونساء، كلٌّ ملامح الأنوثة تظهرُ من خلالِهِ.

تكلَّم القاضي وأخذ يشرحُ للحضور والتِّمثالُ أمامه:

ما كُسر في التِّمثال هو منطقة الصَّدر، وهو ما دعانا إلى كثرة التَّساؤلات؟

لماذا المنطقة المقصودة هي منبع العطاء دوما عند الأمّهات؟

صمت حينها الكلام عن الكلام، وأطلق العنان للنّظر...

عمر:

– ما زادَ خجلي عندما نظرتُ إلى خطيبتي وهي تجلسُ بجانبِ أمِّي، نبضاتُ قلبي تغيّر إيقاعها، فهي تسبقني، كلّما نظرتُ إليها اكتست من الحياء حلّةً، واحمرّت وجنتيها خجلاً، فنسيتُ نفسي وازداد شوقي لها وافتتاني بها عندما رأيتها، كانت الأرضُ تهتزُّ تحت قدماي، تساءلت: أهو وجودك يسبِّبُ اهتزازا تحت قدمي؟ أم أنَّ قلبي تتسارع نبضاته حين أراك؟

نظر القاضي إلى محامي الطَّرفين، محامي "**عمر**" ومحامي التِّمثال وأخذ مطرقته التي لا يستغني عنها أبدا، طرق بقوّة وقال:

– لنبدأ الجلسات ولنقرأ ما بين السّطور من عثرات ولَّدت العبرات، وما بين التّجاعيد من الخبرات، وما في الملامح من أسرار علّها تطفو فوق السّطح، لتكتب لنا حرية الآهات العابرة على قلوب الأمّهات...

– إليك الكلمة محامي «التِّمثال».

يوجّهُ الكلام إلى "عمر"، وبنبرةٍ قويّة كأنَّه يدافع عن إنسان له قلب ومشاعر.

– يا هذا ما هو دافِعُكَ لكسر جزءٍ من التِّمثال؟ هذا تراث المدينة، كيف أمكنك؟

– لست هذا بل اسمي "**عمر**"، قلت لكم عديد المرّات «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**»

ولم يحضر في عقولكم حتَّى الآن، أنا لم أكسر ثدي هذا التِّمثال الذي جعلني في مأزق لا أعرف الخلاص منه، ما الدّافعُ لذلكَ؟ أنا لا أؤذي حتَّى نملة.

– أنت الوحيد الذي كان في ذلك المكان في منتصف النّهار.

– لماذا كسرت الثّدي ولم تقصد مكانا آخر؟

– لماذا تنكر فعلتك المشينة؟

– فعلتي المشينة أتظنّني هتكت عرضا حتّى تقول فعلتك المشينة؟

– نعم أظنّك كذلك.

– لست في مكانك المناسب.

– آه، لو كان هنا "**عمر**" لقذفَ بكَ أنتَ في الزنزانة، الأفضل لك أن تبحث عن عمل آخر، وتترك الفرصة لكثير من الشَّباب العاطل الذي يحمل الكثير من الشهادات، ولا يزال ينتظره دوره، فالمحامي مهنة نبيلة وتحتاج إلى النُّبلاء.

– انظر لنفسك كيف تنظر للتِّمثال وكيف تُدافع عنه؟ اسأل هذا التِّمثال الذي صِرْتَ له عبدا بأقوالك ونظراتك الخسيسة لعله يُجيبك أو ينطق طينه ليبرئ الطِّين من قُيُودكم...

– أليسَ هو من طين وأنا من طين والفرق بيننا الرّوح التي بينَ جنباتي.

استفزّ "**عمر**" بكلامه المحامي استفزازا كاد يُؤجِّل المحاكمة فوجَّه المحامي كلامه إلى القاضي وقال:

– سيّدي القاضي هذا شاب، لقد سوَّلت له نفسه أمرًا لأنَّهُ كان وحيدا هناك.

اخترقت هذه الكلمات صدر "**عمر**" كأنَّها رصاصات تحمل الحقد والغلّ على شاب يُدافع عن حقه في زمن أصبح فيه الحقُّ غريبا، ألبسوه ثيابا لا يليقُ به، فما نحن وهم إلاّ عابرو سبيل على جسور أفعالنا لا على جسور أقوالنا، ثمَّ قال عمر: ألم أقل لكُم:

– «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**» لحدِّ الآن لم يحضر في كلامِ أحدكم ولا في أفعالِ أحدكم.

– هذا المحامي لبسَ أفكارا غريبة عنَّا، فأصبح يهذي...

نظرَتْ إليّ في ذلكَ الوقتِ خطيبتي والدُّموع على مقلتيها، وبكلمة واحدة أخذوا ميّ قلبي وتركوه ينزف الحبيبة...

إنّه أخوها حينما سمع ترَّاهات المحامي، تفاجأ واشتعلت عيونه غضبا، أصبح لونها كلونِ الجمر، أمسك بيده الخشنة يد أخته النّاعمة وجرَّها بقوّة، وما إن لمسَ بيده خاتم خطوبتِنا حتَّى نزعهُ من يدِها ورمى بِهِ في القاعةِ، تفاجأ الجميعُ من تصرّفهِ، ظنّ أنّ هذا الخاتم هو الوحيد الذي يربط بيننا، تدحرج حتى وصل إلى قدمِي، وهل ما يربط بيننا ذهب وفضّة؟ فالعلاقات الحقيقيَّة لا يُمكنُ قياسها بالذّهبِ والفضَّة بل بمدى صدقها في السّرَّاءِ والضَّراءِ، انكسر قلبي كقطع زجاج تناثرت

وتركت قلبي ينزف دون رأفة، من يضمّدُ جروح قلبي؟ لا أحد رأى قطعي حين انكسرت، ولا سمع أنين قلبي حين بكى شبابه الضَّائع، قلبي الوحيد الذي يسمع أنينه وانكسار زجاجه، خاطبتُ في ذلك الوقت خطيبتي بنظراتي وقلتُ لها دون كلام:

–ارحلي واتركي لي قلبي، لا تكوني عنيدة مثلهم؟ لا تكوني ظالمة مثلهم، تأخذي قلبي معك وترحلي، فليس في استطاعتي تحمّل فقدك يا نصفي الثاني.

رأيت الخذلان يصفعني آلاف المرَّات، ستبقى هذه الذِّكريات عالقة بجدران ذلك المكان، ويكتب التّاريخ من ألبسني ثوب الظلم؟

– ارحلي واتركي قلبي يبكي أطلاله، فحتّى الأطلال تبقى فيها المراسمُ، تبقى فيها المرابعُ...

حين اخترق الكلام قلبي....

حين اخترق الرّصاص صدري...

حين تناثرت قطع قلبي، رسمت على الجدران أجمل قصص الظُّلمِ، لم يعبأ بي أحد، تركوني أكسر الحواجز بمناجاتي الدّاخلية، إلاّ أصدقائي، وجدت معدنهم أصيل، لم يتركوني اهتموا بأمّي في غيابي، هذه هي البشرية...

تواصل المحاكمة مع سُؤالِ القاضي:

–ما دليلك يا محامي التِّمثال على هذا الكلام الجارح والطَّاعن؟

عمر: لا تخف يا محامي التّمثال عندما تنهي القضيّة سنكافئك على دفاعك، وذلك بإهدائك مثلهِ، فأنت تُشبهُهُ تماما ليست لديك

مشاعر، وأصبحت لا تفرق بين الحقيقة والزَّيف، بين الحقّ والظلم، أين ينام ضميركَ؟ في حضن الجهل والقهر أم في حضن الغفلة والنّسيان.

أفكار اختلجت فؤادي في تلك اللّحظة، حين يُغتال الحقُّ على يد بني البشر، وينصر أيضا على أيدي بني البشر، هي معادلة صعبة في زمن غابت فيه المشاعر الحقيقيَّة وزيّفتها مشاعر ترتدي حلّة من الخداع، هانزا لازلت أبحث عن الحقّ في بيته، لكنَّه لحدِّ الآن لم يحضر، فقد قلتها آلاف المرَّاتِ: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**» أتظنُّهُ نائم مع الضَّمائر، أم أنَّه سيصحو مع الضَّمير الحيّ ما لنا إلاَّ الصّبر والانتظار نعبر على جسورهم، هأنذا فوق جسر الانتظار حاملاً أمنية الحرية لا غير.

وجَّهتُ سُؤالي للمحامِي:

– وما أدراكَ أنِّي كنتُ الوحيد في المكان؟

مُحامِي التِّمثال: تفضَّل أيُّها الحارس وأدلي بشهادتكَ.

– أخافُ أيُّهَا الحارس أن تكونَ مثل حارِس سُور الصِّين العظِيم، الذي بَناهُ قدماء الصِّين فكان بناءً شاهقا، واعتقدُوا بأنَّهُ لا يوجد من يستطيع تسلَّقه لشدَّةِ علوّهِ، ولكن خلال المئةِ سنة الأولى بعد بناء السُّور تعرَّضت الصِّين للغزو ثلاث مرات! وفي كلِّ مرَّة لم تكن جحَافِل العدوِّ في حاجةِ إلى اختراق السُّور أو تسلُّقِهِ، بل كانوا في كلِّ مرَّة يدخلون عبر بوابات السُّور!... كانَ العدوُّ يدفعُ لحراسِ البوابات، ثمَّ يدخلون، فقد انشغل الصِينيُّون ببناء السُّور ورفع عمادهِ ونسوا بناءَ الحارس!

–اصمت يا "**عمر**"، لا نحتاجُ لمحاضرتك دع البواب ينطق بشهادتهِ.

-انطِقْ بشَهادتِك أيُّهَا الحارِس، لعلَّكَ تنتصرُ لهذا التِّمثال المسكين.

-أنت المسكين يا هذا، تنتصر لتمثال ولا تنتصرُ لإنسان تنتصر للطين ولا تنتصرُ للرُّوح، أظنّك أنت التِّمثال الحقيقي لأنّك لا تتكلّم بضميرك، كأنّك آلة بُرمجت لتقول ما تقول، قل ما جئت لقولهِ وتنحَّ عن الحقّ حتّى يجد فتحة ويدخل ليفتح الباب على مصراعيه فقد قلت لكَ «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يَحْضُرَ عمر**»، تنحَّ جانبا واترك بصيص الأمل يعرف طريقه إليَّ.

القاضي:

- أُصمت يا "**عمر**" ولا تتدخَّل إلاّ حين يسمح لك بالكلام، وإلاّ أخرجتك وأكملنا الجلسة من دونك.

عمر:

- إنَّها خطيئة جاهلية لا زلنا ندفع ثمنها.

-سيّدي القاضي، ألا ترى تمثال المرأة يتألّم حين كسر "عُمر" ثديها؟

القاضي:

- وكيف عرفت أنّها تتألّم هل شَعرْتَ بها؟

الحضور:

- قهقهة هـ، هـ، هـ، يا له من مسكين نظنُّ أنّه...

محامي التّمثال:

- لا يا سيّدي. لكن....

محامي عمر:

- يا عمر أين كنت حين كُسر التِّمثال؟ هل لك عادة أن تذهب إلى ذلك المكان؟

-كنتُ في عالم آخر.

اندهش الحضور من كلام "**عمر**" وظنّوا أنّه مجنون أو يدَّعي الجنون من أجل أن ينجوَ من هذه التُّهمة التي ألصقت به.

يبرّر محامي "عمر" سبب كسر جزءٍ من التِّمثال:

-انخفضت نسبة السُّكر في دمهِ، وأصيب بالإغماء، وحين أحضروه كان مغمى عليه، والتّقرير الطبِّي موجود في المستشفى يُؤَكِّد ما قلنَاهُ.

يتدخّل محامي التِّمثال ويقاطع كلام محامي الدّفاع ويقول:

-أرأيت يا سيّدي القاضي كيف يتملّصُ "**عمر**" من الإجابة، ويدَّعي أنَّهُ كان في عالم آخر، يدَّعي الجنون ألا يستحقُّ هذا الإنسان العقوبة؟

يصرخ القاضِي في وجهِ المحامي ويقولُ لهُ:

- حين يأتي دورك تتكلَّم، ما بِهِ هذه العالم، الكلُّ يتكلَّم، لا تقاطع الدِّفاع أنصت وسجل، وحين يحين دورك نعطيك الكلمة.

ثمَّ يطرقُ غضبا على المكتب بمطرقته ويقول: رُفعت الجلسة ويرفعُ "عمر" أمرهُ لله.

طال الجدلُ العقيم بين الطَّرفين، و"عمر" كالأرجوحة بين هذا وهذا، لكنَّهُ لايزال متمسّك بحبالها وببراءته، سئم الجميع من طول عمر القضيّة، دامت شهورا وشهورا، بلغ مداها الأفق شغلت الكلّ الصَّغير والكبير، هذه هي معاناة البشرية مُنذ الأزل صراع بين الحقّ والباطل، أخذ عمر يكلّم مصطفاه:

من أين لنا هذا التمثال؟

ظننت أنَّهُ عاد من زمن الجاهليّة.

آهٍ إنَّها نفس الخطيئة الجاهليّة تعود في ثوب امرأة ماكرة، لكنَّها هذه المرّة أصبحت جمادا لا تملك مشاعرا، بل صورة تمثال لوجهِ البشرية.

عاد عمر إلى زنزانته مكتئبا ومستاءً لما آلت إليه أحداث المحاكمة، لكنّه سُرَّ حين رأى ذلك الحارس الذي كان محطَّة جميلة في حياته، فقد علّمه دروسا وعبرا من الحياة، وعبَر قلبه، وفي اليوم الموالي أخذه حارس طويل القامة قويّ البنيّة، مُزاجه معكّر طول الوقت، ملامحه لا تبشِّر بالخير، أخذه من يده أخذةً قويّة إلى غرفة أخرى بها سجناء من مختلف الأعمار، شباب كهول، شيوخ، إلاّ أنّ فئة الشَّباب هي الغالبة لكثرة مشاكلهم.

عمر:

عندما وصلتُ الباب دفعني ذلك الحارس دفعة جعلت وجهي على الأرض، فاشتدَّ غضبي ولم أتمالك نفسي، نظرت إليه نظرة حقد واشمئزاز، وقلت له:

– من تظنُّ نفسكَ حتَّى تدفعني؟ مهمّتك أن تأخذنِي إلى السِّجن وحسب، لا أن تذلّني بهذه الطريقة، ألستُ أخا لي في الدِّيانة؟ ولست أخا لكَ من نفس الطين؟

–أغلق فمك يا مجرم...

–لست مجرمًا، بل أنت المجرم الحقيقي لأنّك لا تقوم بعملك على أكمل وجه، وستحاسبك البشرية يوما ما.

–قهقه الحارس هههه.

–البشرية، تعال هُنا أيّها اللّعين، لسانك طويل، بل أطول منك حتَّى.

يعود ذلك الحارس إلى "**عمر**" ويضربه برجله، ويقول له نادي أمّك لتنقذك أيّها المجرم.

عندما سمع عمر كلمة "أمّك" تجاوز كلّ الخطوط الحمراء، واشتدّ غضبه واحمرَّت عيناه، وبدأت تطلق شرارة كهربائيَّة تتبعها الصّاعقة، وإذا به يتصادم مع الحارس بالضَّرب والكلام.

الحارس: أيُّها الجاهل سترى ماذا يحلّ بك هنا.

–لست جاهلاً، بل كنت الأوّل في دُفعتي، وشاءت الأقدار أن أكون هنا أمامك أنت لِأقوم بتأديبك من جديد وأدع الحياة تعلّمك إذا لم تتعلّم.

–لا أدري إن كنت درست أم لا؟

وفي كلِّ صفعة يوجِّهها "عمر" إلى الحارس يحسب فيها عدد شهاداته التي تحصّل عليها في مشواره العلمي ويذكّره بها، حتّى تهاوى ذلك الحارس القويّ البنيّة، تفاجأ الجميع، كلّهم وقوف بين سؤال الحيرة وجواب الدّهشة: كيف لهذا الشَّخص العادي أن يُسقط حارسا بهذه القوّة والحجم؟!

حينها تساءل الجهلاء: من أين للأوّل بهذه القوّة؟ ومن أين للثَّاني بهذه القوّة؟

فردّ العقلاء:

– الذي بثّها في الأوّل بثَّها في الثّاني، فالحياة ميزانها العدل، منذ الأزل فالأيَّام هي التي تنبي بالأخبار...

تدخّل الحارس الأوّل وغطى الوضع حتّى لا تتأزم الأمور على "**عمر**".

نظر "**عمر**" إلى الجميع نظرة خوف أثارت في نفسه فزعا فهو يعرف أنّ السّجن مكان للمجرمين ومظلومين، ثمّ خاطب مصطفاه بقوله:

إذا كان السّجن مكان للمجرمين؛ هل يعني أنّي بالضَّرورة مُجرم ألحقتُ بالمجرمين؟

أيقن "**عمر**" أنَّ السِّجن قد يكون بين جدرانه المظلوم مثل حاله، ردَّ عليه مصطفاه:

– لا داعي للتفكير السِّلبي وظنّ السُّوء بالنّاس.

–نظر إليّ الجميع، كأنّي زائر جديد مُتمرّد، تسمّرت في مكاني فكلّ تلك القوّة والشجاعة تناثرت في لحظة، نطق أحد السُّجناء وقال لي:

اجلس يا هذا، فجلست بجانبه لأنّي شعرت بطمأنينة اتِّجاهه كنت متعبا ومرهقا، وجسمي يتمزّق من إثر ضرب ذلك الحارس صاحب الجسد الضَّخم، استلقيت على فراش رقيق جدا، كلّمني ذلك السَّجين الذي كان بجانبي، أريد أن أسألك سؤالا واحدا قبل أن تنام، لأني متأكدّ لو تركتك تنام ستزوريني بالمنام وتلطمني لطما كما فعلت مع الحارس اللَّعين.

–كيف تغلّبت على الحارس؟

– عندما يُواجهُكَ كالموج وأنت وحدك في البحر، ماذا تفعل؟

ما هذا يا رجل سؤال بسؤال؟ والله لقد زدت من حيرتي!

–لا تجبني اليوم، فكّر جيّدا، فغدا لناظره قريب.

غفوتُ فوق غيوم الأحلام الملبّدة، ومعركة السّؤال والجواب بداخلي تنتفض انتفاضًا، ما الحلّ ما السَّبيلُ؟

أتى اليوم الموالي، وإذا بالسَّجين يُوقظني:

يا رجل، يا رجل استفق أرجوك، لقد وجدت الجواب.

عمر: بالكاد أفتح عيوني.

استيقظت على بقايا حلمٍ ليت زمنه طال، زارني ذلك الطفلُ الصّغير المتشرّدُ في المنام، الذي التقيته مع رفاقي وأشار بيده إلى الخطوط التي كان يرسمها...

خطوط على رمال البحر...

خطوط على شظايا القلب...

خطوط على التراب يرسمه قدرا...

وإذا بتلك الخطوط تتشكّل من جديد وترسم جسرا كبيرا وأنا أعبرُ فوقه عبر هذه المشكلة، تسمّرت في مكاني وأنا من فرط دهشتي أردت الهرب، ممّن؟ من عالم مشوّه...

تحدَّثَ الطِّفلُ وقال: هذا الجسر الذي رسمتهُ لك يومَ وهبتني تلك النّقود، لكنَّك انصرفتَ قبلَ أن تراهُ، ستعبر هذه المحطّة بأمانٍ وتحقِّقُ أمنيتك المعلَّقة فوق الجسر!!

ثمَّ صرخت في وجه السَّجين، ما بكم حتَّى في أحلامنَا تزاحموننا، لا تركتمونا نعيش الحقيقة ولا الأحلام، تركتمونا عالقين بين نار ودخان، تبّا لكم.

ما بك يا رجل، أكلُّ هذا فعله بك سؤال.

السَّجين:

كلُّنا تائهُونَ بين سُؤالٍ وجوابٍ، إذا واجهني موج أو عاصفة قويّة، فأكيد سوف أهلك.

-أين يقينك؟ أين إرادتك في الحياة؟ أين أنت من كلّ هذا؟ هل ستبقى واقفا تنتظر الموج يأخذك حيث شاء؟

-وماذا أفعل أمام موجة هوجاء؟

-يقينك بالنَّجاة بإذن الله، الإرادة تقهر الحجر، عزمك وإصرارك، خذ خطوةً إلى الأمام.

لقد تمكَّنْتُ من إعادة الثّقة في نفسي وفي السَّجين بأسئلته، لم أكن أعرف ما يجري خارج أسوار السِّجن لمدّة ثلاثة أيامٍ.

أصبحت قضيتي قضية المدينة بأكملها، خصوصا لما تزيَّنت بقيمة الجائزة الكبرى لمن يفقهُ جملة "عمر" ويُحضرُ "عمر".

ولما كان المجتمع يعاني فقرا مدقعا سال لعاب العديد من النّاس لربح الجائزة، فالكلّ يعشق الجوائز واستمر الحال كذلك...

الجائزة

سكان المدينة يعيشون حالة ترقُّب، فيما غيرهم يجدون من هذا الأمر مهزلة ومضيعة للوقت، أهي ملهاة أم مأساة، لعبة نلعبها كلعبة الحوت الأزرق، تُلهي أطفالنا لبعض الوقت ثمّ تذهب إلى حال سبيلها ونحن ننظر وننتظر لعبة جديد، أهي لعبة القدر؟ هذه هي الحياة، وهذه هي الشّعوب، البعض يستهويه الحزن والبعض الآخر يستهويه الفرح وبين الحزن والفرح مسافة شهيق وزفير، استمرَّ الحال على حاله لمدّة لشهورٍ وأنا أترقّب حريَّتي.

حتَّى مرَّت المدينة بأحداث مهمّة غيّرت مجرى الشّعوب، لم يعبأ بها أحد لانشغالهم بهذه القضية، بعدما كنّا ننشغل بالقضايا الكبرى أصبح يستهوينا الانشغال بالقضايا الصّغرى، أظنّها خطيئة جاهليَّة، فكان أن تأزّمت أحوالهم وكثر الكلام، وأصبحت قضيّتي قضيّة شباب البلد.

أحسَّ القاضي بأنَّ ما يخبأ في الخفاء سيفاجئه يوم يصعب عليه مواجهته بعدما رأى شباب البلاد يتعاطفون مع "**عمر**"، أخذ ناقوس الخطر يدقُّ على مستقبله، فرفع الأمر إلى حاكم المدينة الصّغيرة، علَّه يتفقّدُ أحوال رعيَّته كما كان يفعلُ "**عمر**"، وعلى الفور وضع الحاكم إعلانا مستدركا من خلاله الأمر وطلب نشر الخبر، فجاء الإعلان كالآتي: "يا سكان المدينة... إنَّ الحاكم يرخّص لكم الاقتراب من المجلس الأعلى، فمن رغب في ذلك، عليه أن يتقدَّم إلى مصالح الأمن لتسجيل اسمه في قائمة الذين يفقهون معنى الجملة".

بعد هذا النّداء المفاجئ توافد السّكان على المحكمة بأعداد هائلة، الكلُّ يريد الجائزة وتسجيل اسمه في القائمة حتى بلغ عدد المسجَّلين آلاف الآلاف.

بدأت جموع عبدة المال تهطل على المحكمة يوميا، بين طامعٍ وطامحٍ إلى الثّراء، بين صادق وكاذبٍ، الكلّ يدلي دلوه من أجل الفوز بالجائزة.

عندما تسلَّم القاضي القائمة أدهشه العدد الضَّخم من المسجَّلين والذي لم يكن يتوقّعه، وظل يتساءل:

– كيف للمجلس أن يستقبل كل هذا العدد؟ وكيف يستطيع حاكم البلاد استقبالهم؟ وما هو دليلهم لبراءة "**عمر**" هي أسئلة أخذت تتكاثر وتتكاثر في ذهن القاضي، فمنذ أن بدأ هذه القضيّة والأسئلة عنده أصبحت ولودا. شرع يفكّر في حيلة تُبعد كل هؤلاء الشُّهود المتنافسين على الجائزة، ويضمن للبلاد هدوءها وسلامها.

أعلن القاضي عن انعقاد الجلسة الأولى، وطلب من مساعديه إحصاء عدد المشاركين بشهاداتهم، ولما أحصوا الأعداد وجدوا ملايين الآلاف من الشُّهود بشهاداتهم، عدد ضخم جدا، فأدرك أنّ الجائزة الماليَّة هي سبب وفود كلّ هذا العدد، ممّا اضطرّه إلى البحث عن حيلة أخرى من أجل تقليص العدد، أخذ القاضي مدّة أسبوع من أجل التّفكير في حيلة يقلّص بها عدد الشُّهود، ولم يجد شخصا ذكيا يساعده في حيلة إلاّ حارس السِّجن المرافق لـ: "**عمر**"، فقد كان معروفا بذكائهِ ودهائهِ، لأنّ الحاكم ليس بمقدوره استقبال هذا العدد الضَّخم.

في اليوم الثَّاني أصدر إعلانا آخر، والكلّ متلهّفُ لسماع القرار: "يا سكان المدينة، يقول لكم القاضي أنّ القائمة طويلة جدا والوقت غير

كافٍ لقراءة كلّ الأسماء وليس بطاقة المحكمة استقبال كلّ المسجلين الشُّهود، وعليه تقرَّر إضافة شرط آخر قبل إجراء مسابقة قبول الشُّهود".

جموع النّاس في لهفة من أمرهم، والكلّ ينطق: أسرع ما هو الشَّرط، فالشّروط في زماننا لا تنتهي.

أن يكون للشَّاهد عائلة وسكن، وإذا بالجموع تتذمّر وتتراجع ويتقلّص عددهم...

يواصل المنادي بإتمام البلاغ: "وتتمثل هذه المسابقة في إجراء مقابلة بين السَّائل والشُّهود أنفسهم، وسيستقبل عشرة أشخاص في اليوم فقط، ويرافقهم إلى منازلهم، فمن رغب في الترّشح عليه أن يسجّل اسمه في قائمة الترشح لدى مصالح المحكمة".

ظنّ الشُّهود أنّ الزّائر الذي سوف يسألهم هو قاضي المحكمة وإذا بالمفاجأة كبيرة!!!

القاضي الحكيم هو الذي يسأل الشُّهود، لأنّه أدرك أنّ هذه القضية مهمّة جدا فجميعًا يتحدَّث عن جملة عمر الشَّهيرة: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يحضُرَ عُمَر**»، فبدهائه وحنكته فكّر أن يتدخّل هو بنفسه، لأنَّ الأمر هاله حين سمع بعدد المترشّحين للجائزة، وأدرك أنّ الشَّباب يعاني، وقرّر أن يعيش مع الشَّباب، يأكل ممّا يأكلون ويشرب ممّا يشربون، أليس هو راعيهم؟ نعم، إنّه يريد عبور الجسر معهم بسلامٍ.

شرع القاضي الحكيم للبلادِ في استقبال الشّهود وبدأ بالسُّؤال الذي حيَّر الجميع؟

في كلّ مرّة يستقبل شاهدا ينظر إلى ملامحِهِ وإلى البؤس والشّقاء، فتزداد دهشة الشّهود!!!

كان في كلّ مرّة يسأل الشّاهد أين مَسْكَنُكَ؟ من هو عمر الذي قصده عمر في جملتهِ: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يحضُرَ عُمَر**»

كان المشارك يدلّه على مكانه ثمّ يأخذه إلى منزله لعلّ آلامه تُسكَّن بزيارة القاضي الحكيم، فيقوم بجولة كاملة في أرجاء البيت، يتفقّد كلّ شيء، كأنّه يبحث عن شيء ثمين ضائع، أو يريد فتح لغزٍ تُخفيه البيوت، وما أكثر الألغاز التي تخفيها البيوت، فكلّ البيوت تُحكم أسوار جدرانها حتّى لا تخرج المعاناة، حتّى لا تفيض الكؤوس بما فيها من زبد البحر، فمكابدتهم وصراعهم مع الحياة يجعلونه في إطار مربّع كأنّها صورة حيّة يؤطّرونها بأيديهم ويجعلون حلقاتها تدور حول معاناة البشرية، لكنّهم لن يعبروا على إطار الصّورة بل على جسر صبرهم، أصبح أمنيّة الجميع أن يزورهم القاضي.

استهوت القاضي الحكيم هذه الفكرة، وأصبح يعيش مع الشّباب، لكن في كلّ مرّة يزور بيتًا يكتشفُ ما أخفيَ عنه في إطار الصُّورة، لما قطع القاضي الحكيم شوطا مع نصف سكان المدينة تفاجأ لعيشتهم التي لا يعلمها إلاَّ هم، من معاناة وعوزٍ ومرضٍ بدأت جموع النّاس المتبقية تغيّر أثاث منازلها وتزيّنها بكل ألوان الطّلاء، ويحضرون كلّ ما لذّ وطاب من مأكولات، إلاّ أنّ القاضي تذوّق من كلّ بيت من البيوت التي زارها طعم صبرهم على الجوع دون شكوى، فالفقير لمن يرفع شكواه على المريض الذي أعجزه المرض، أم على الفقر الذي أعجزه؟

أم على الظّلم الذي قهرهُ، حينها أدرك أنّه لن يعبر عبر أيّ جسرٍ إلاّ عبر جسور تحقيق الأمنيات.

ثمَّ طلب القاضي من عاملهِ أن يخرج إلى النّاس ويعلمهم عبر وسائل الإعلام أنّ الشَّخص الذي يغيّر من منزله يُحرم من المشاركة...

ويبقى "**عمر**" حبيس زنزانته يكتب قدره المجهول، في كلِّ مرّة يطوي صفحة الحزن ويمزّق صفحة الألم، لا أحد يزوره، فحتّى والدته كانت طريحة الفراش، انقطعت عنهُ أخبار خطيبته "ماريا"، ولكنَّهُ اطمأنَّ لما فعلهُ وهو داخل أسوار السّجن، فقد قدَّم هبة للشبابِ من خلال جملتهِ الشّهيرة: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يحضُرَ عُمَر**».

كان من بين المشاركين "**أسعد**" صديقُ عمر ما كان يطمح إلى مال ولا جائزة ولكنَّه كان يطمع إلى براءة صديقه "**عمر**".

ها هو ذا القاضي الحكيم يزور "أسعد" في منزله، وقبل أن يصعد إلى منزله استوقفه منظره وهو يبيع الكعك في عربته الخَشبيّة، اشترى القاضي الحكيم من "**أسعد**" كعكا شهيا، وأخذ يأكلُ منه ويتلذّذ من طعمهِ الشهيّ، فاندهش "**أسعد**"، أبصر القاضي دهشته، فقال له: ألستُ بشرا مثلكم؟

نعم، اشترى من عربة إنسان بسيط... ازدادت دهشة النّاس، القاضي الحكيم يأكل كعكا من عربة خشبيّة في الشّارع؟

قال القاضي لأسعد: مهما اختلفت جنسياتنا، مراكزنا مناصبنا، فسوف نمضي إلى مكان واحد، ونعبر عبر جسرٍ واحد لنصل إلى محطّتين مختلفتين، فالأولى مرغوبة، والثانية نقذف فيها، ألسنا عابرو سبيل على جسور أفعالنا؟

دخل القاضي الحكيم منزل "**أسعد**" وقال له:

– أهذا مسكنك يا أسعد؟

فردّ عليه "أسعد": لا يا سيّدي القاضي، فلحدِّ الآن لم تسكن نفسي ولم أجد التي أسكن إليها، لازالت أمنيتي معلّقة فوق الجسر.

تفاجأ القاضي من جواب "**أسعد**" الذي اختلف عن جواب كلّ الشّهود الذين سبقوه، وقال له:

–وضّح لي ما قلت أكثر؟

ستسكُن روحي مع "**أماني**"

سأله القاضي: وكم أمنيةً لديك؟

صمت "**أسعد**".

حينها أدرك القاضي رسالة "**أسعد**" ومدى بؤسه وشقائه في هذه الحياة، فرغم شهاداته إلاّ أنّه يجرّ عربة ويبيع كعكا، كم سهر اللّيالي وهو يدرس؟ كم كان يحلم ويحلم؟ فبعض الأحلام يبدّدها النُّعاس وبعضها الأمنيات تصطدم بالحقيقة والواقع فتتلاشى.

يواصل القاضي سؤال "**أسعد**":

ماذا قصدت بقولك: "لم أجد التي أسكن إليها بعد"

فردّ "أسعد" بكلام ليس كلامه، سألتني عن السّكن فما عرفتُ له جوابا إلاّ في قولهِ تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾

فالنّفس التي أسكن إليها رفضني أبوها، لا لشيء إلاَّ لأنّي فقير معدم، فظروفي هي التي منعتني من مواصلة تعليمي في الدّراسات العليا...

تذكّر في هذا الوقت "أسعد" كلام أمّ "**أماني**" حين تشاجرت مع زوجها الذي رفض "أسعد" لأنَّه فقير لا يملك إلاّ قوت يومه، حينما قال لها:

– ألست سعيدة معي حين وفّرت لك مسكنا كبيرا وخدمًا؟ أتريدين أن تسكن ابنتك في عمارة مع النَّاس، فردّت عليه زوجته:

– أنا لم أشعر بسكنك لي أبدا. رغم المال... رغم الجاه... رغم الخدم...

فأنتَ لم تكن نفسا أسكنُ إليهَا حين الوجعِ، لم تحتويني حينَ الألم، حين الفرح، أنا امرأة، أنا كون بأكمله سهل كسرهُ، صعبٌ جبرهُ، فأنا أعيش على حافة جِسرك ولكنّك لم تسمح لي لأعبر هأنذا أنتظر...

ثمَّ سألهُ عن جملة عمر صديقه حين قال: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يحضُرَ عُمَر**»، فقال أسعد:

ها أنت قد حضرتَ عندي واشتريت من عربتي مع أنَّك تستطيع شراء أفضل دكان لبيع الحلوى في المدينةِ، وتفقّدت أحوال الرَّعيّة بعدلٍ دون ظلمٍ ودون استثناء، أنتَ "عمر".

تفاجأ القاضي من كلام "أسعد" والدّموع تُذرفُ من عينيهِ وقال: سيحضر "**عمر**" في كلِّ مكانٍ في مدينتنا، ثمّ انصرف...

أدرك القاضي الحكيم حينها أنّ "**أسعد**" يُدرك دقائق الأمور يفرّق بين السّكن والبيت، بين الرُّوح والطِّين، بين الكَلاَمِ والكُلاَمِ والكِلاَم ويدرك حقائق الأمور الأزليّة، لكنّ حيرته ازدادت من حال شباب بلاده، كيف بشاب مثل "**أسعد**" غنّي الأدب غزير العلم، أحسن الجواب وهو فقير معدم، لم يجد مكانه المناسب في هذا المجتمع، في حين

نجد أشخاصا في غير أماكنهم، وتعود الأسئلة لتولد وتتكاثر من رحم المعاناة، من وظّفهم؟ من يعرفهم؟ وتبقى الأسئلة تائهة فوق الجسور، معلّقة أجوبتها بأمنيات تتطايرُ هنا وهناك.

ما كان "**أسعد**" يظنّ أن الجائزة الكبرى ستكون من نصيبه!!!

قام القاضي الحكيم بهذه الجولة مع كلّ المتسابقين الشّهود دامت المدّة سنّة كاملةً والقاضي الحاكم يعيش مع شعبهِ، يبحث عن الشَّاهد في كلّ بيت من بيوت شعبه، يبحث عن الكنز الضَّائع وهذا الكنز الذي يبحث عنه هو الذي غيَّر مجرى حياة البلاد فيما بعد، ما كان يبحث تبرئة "**عمر**" واحدٍ بل يبحث عن أعمار ضائعة منهوش حقّها، تفاجأ الحاكم من معاناة شعبه وصراعه للبقاء ضدّ الفقر وضدّ الظُّلم، من معاناة شعبه التي لم يكن يعلم بها، تأسّف لحاله، كيف يعيش في قصر؟ يأكل ما لذَّ وطاب، وبعض أبناء شعبه يبيتون على الطّوى، يعانون التّهميش، يهجَّرون إلى أوطان غير أوطانهم، وعاود السُّؤال، لو لم أتفطّن لأحوال شعبيّ: عبر أيّ جسرٍ كنتُ سأعبر؟

انتشر الخبر في المدينة وتطاير كما تتطاير الصُّحف في السّماء، لا أحد يستطيع مسك صُحفِهِ، هكذا كان الحال بالنسبة لسكان المدينة لا أحد استطاع فتح اللُّغز كون الحاكم يبحث عن شيء ثمين أو تراثي في منازل الشّهود أو يبحث عن أداة الجريمة، أو سببها الذي أدخل "**عمر**" السِّجن، وحرمهُ حريَّتهُ وهو شاب في عمر الزُّهورِ.

ازدادت حيرة ودهشة النّاس ولم يجدوا تفسيرا لحيلة القاضي الحكيم هذه التي جعلته مع الحاكم يتفقّدون أحوال الرّعيّة. يتكلم النّاس في كلّ

مكان، في الطُّرقات، في الأسواق، في المعاهد، في المدارس، فتساءل الجميع: هل يتفقّد أحوال الرّعيّة؟

نعم، ومن كان يتفقّد أحوال الرّعية في الزّمن الغابر؟

إنّه "عمر" الذي كان يتفقّد أحوال الرَّعيّة، هل التاريخ يُعيد مجده؟ هل التّاريخُ يُعيدُ نَفسه؟

لقد كان يعلمُ علم اليقين أنّه سيعبُر عبر جسر الصّراط فتمنّى العبور بسلام.

والحال على تلكَ السيرة... ومعاناة عمر تزداد يوما بعد يوم في متاهات الحياة، ادلهمّت به الخطوب، وهو لا يزال في ردُهاتِ الذَّاكرة المنسيَّة... ذاكرة الأمّ الأبدية التي ازدادت معاناتها، لم تجد سبيلاً إلاّ الدُّموع التي جعلت منها أنيسا لوحدتها، فكانت غيثا يُصيب "عمر"، فتزداد جذور صبره، وتونعُ أوراق الأمل من جديد...

يُواصل "عمر" عبور محطَّات الألم والحزن عبر جسور الأمل وأمنيّة الحرية، في كلّ يوم ينتظر الجديد، يعود "عمر" إلى عادته في زنزانته...

في الصَّباح الباكر أستيقظ، أفتح عيناي لأراك من النافذة على صياح أبواب الحديد، لا صياح للدّيك هناكَ، لا أرى غير غرفةً سوداء مظلمة، أريد سماع صوتك يا أمّي، وإذا بي أسمع صوت الغرباء، أرجع والأمل يقطعني ويعاودني من أجلك يا أمّاه.

وما كان يبثُّ الأمل في قلبي في كلّ يوم حينما أستقبل رسائلاً من أمّي "عائشة" وحبيبتي "ماريا" التي كانت تنسج الحروف بيدها وتبثُّها من عطرها وشوقها إليَّ، لا أقرأها إلاّ بعد أن ألقي نظرة على صورة أمّي ومحبوبتي فهذا الشّيء الوحيد الذي أحمله في جيبي الصّغير دائما، كأنّ

أستحضرها واقفةً أمامي، لكن على غير عادتها، فها هي تلبس ثوب الحزن، تعيش على أمل رؤيتي معها...

في تلك اللّحظات ينادي الحارس على عمر:

-تعال يا "**عمر**"، أبشر وصلتك رسالة من نبع الحنان.

ينهض "**عمر**" من مكانه لا يدري كيف نهض هل سبقته رجله أم نبض قلبه، أخذ الرّسالة من الحارس ثمّ أخذ يشكره بكلّ عبارات الامتنان. ويعود مسرعا إلى مكانه من أجل قراءة الرّسالة، وإذا بالحارس ينادي عليه يا "**عمر**" خذ حقيبة الملابس ما بك؟

يأخذ "**عمر**" الحقيبة والألم والحسرة يتصارعان في كينونة قلبه، فهذه الحقيبة زادته حزنا وأيقن أنّ مدّة سجنه ستطولُ...واختلجه في ذلك الحين سؤال: لمَ هذه الحقيبة؟، ألسنا كلّنا عابرو سبيل؟ لا أحتاج إليها فأنا أحتاج إلى أحمل زادا آخر وإلاّ لن أعبر جسري بسلام.

يمدُّ بصره هنا وهناك يبحث عن زاوية بعيدة عن ضوضاء وهرج السّجناء، جلس في زاوية، وأخرج صورة أمّه من تحت وسادته، ملأ مقلتيه بنظرة إليها ونظرة أخرى إلى محبوبته، أينظر إلى السَّماء أم إلى النّجوم؟ مسك عمر الرّسالة ويده ترتجف فهو منذ أيام عدّة لم يسمع عنها شيئا وهي مريضة تُعاني لوحدها، وهو يتساءل:

- يا ترى ماهي أحوال أمّي؟ هل استفحل الورم؟ هل تحسّنت؟ وإذا به ماسكا الحقيبة على صدره، وحين همَّ بفتح الحقيبة، أخذ يستنشق الهواء، لأنّ رائحة الأمّ عمّت المكان، عطر يفوح من الحقيبة تفاجأ "**عمر**" ولم يصدّق الرائحة، أخذ يستنشق ويستنشق، علّها تضيفُ له عمرا إلى عمره، ظنَّ أنّه يهذي، فتح الحقيبة وإذا به يجد ملابسا ومن

بين هذه الملابس معطف أبيه ذُرفت الدّموع من مقلتيه، وراح يشمّ معطف أبيه ويضمُّه إليه ضمّة قويّة يسترجع به أيّام أبيه، وسرح بذهنه يتذكَّر مقعد أبيه كيف يتجوّل في بساتين الجنان وهو يتنظر قدوم سبعين شخصا من أهله ليشفع لهم، إنّه شهيد الثّورة، شهيد الوطن.

ها هو ذا لا يزالُ يوصيني بأمّي التي ضحى من أجلها، والتي لابدّ عليّ أن أسلك طريقه، فهذه هي أمّي لم تبعث معطف أبي من أجل أن أتذكّره، وإنّما من أجل أتذكّر رسالته من أجل هذا البلد الحبيب...

لبس "عمر" معطف أبيه وهو يحنُّ إليه، فرائحة عطره لازالت هي، آه يا أبيّ كم اشتقتُ إليك؟

تذكّر "عمر" أمرا، وخاطب مصطفاه: ألا يزال أبي حيا؟

مصطفى: إنّ هؤلاء الرّجال يبقون على حالتهم، أجسادهم عطرهم، تضحياتهم، كلّ شيء فيهم حيّ يرزق، فقد عبروا جسرهم بسلام، ظلّ عمر مندهشا من سبب وجود معطف أبيه! وأخذ يسأله لعلّه يجيب عبر رسائل القدر.

هأنذا أكتب ذكرياتي المنسيّة بحبْرِ الدّموع على معطف أبي...

-أين أنت يا أبي؟

لم تشتر لي يومَ لعبةَ؟

لكنّك اشتريت لي حريتي بدمّك؟

فبأيّ حقٍّ يحرمونني حريّتي؟

لم تشتر لي يوما حبَّة حلوى؟

لكنّك اشتريت لي مدينة، أرضا، وطنا، سلاما، حريّة.

فكم أشتهي عناق هديتك يا أبي!!!

واليوم ألا يمكن أن يكون لك تمثال كتمثال تلك المرأة التي تهوى المراقص... تهوى أصوات الأغاني الصاخبة، الصَّارخة... في حين أنّك كنت تهوى صوت المدافع، والقنابل من أجل تحرير الوطن الأمّ من براثن الاستعمار.

والسّؤال يعيدُ نفسهُ:

– من وضع معطف أبي في الحقيبة؟ أمّي أم خطيبتي، وما سرّ وجوده؟ أيُخفي خيبات هذا العالم الذي يتهاوى بين تنهيدات زهوره...أم ليذكرني بأن أواصل حمل الرايّة التي تركها مرفوعة وألا تتزعزع ثقتي مهما حدث... لماذا كلّ هذه الملابس؟ لأرتديها؟ أم لترتديني ألوانا في غيمة الشتاء؟ ... فإذا ارتديته أبيضا فذاك لون لا يحلّق إلاّ في السّماء، بعيدا عن هذا العالم الذي يتهاوى من أجل الفناء، ينظر من بعيد... ليبثَّ السّلام إلى روحي التي تكابد العناء... وإذا ارتديته أحمرا فذاك لون لطالما سقى الأرض بالدّماء، لكنّه اليوم أصبح احمرار لطلقة بارود صمّـَـــاء... وإذا ارتديته أخضرا فذاك لون ما تبقَّى من عُشب المفازة الهاربة من عيون الفتاة السّمراء من قارتنا السَّمراء...

لن أمكث طويلاً في هذا السِّجن، فما أنا وهؤلاء السّجناء إلاّ عابروا سبيل على جسور الصّبر... لكنّي قرّرتُ أن ألبس مِعْطفكَ يا أبي لأختبئ من بطشهم من ظُلمهم، فجسمي لا يحتمل طلقات رصاصهم التي تحدث ضجيجا لا يسمعه أحد، لأختبئ من شتائهم الذي يجمّد مشاعري، واترك زخّات المطر لكي تبلل قلبي الذي جفّ... لأختبئ من حرّ صيفهم في عراء بحورهم... لأختبئ من ربيعهم العربي، فلم أعرف الرّبيع بأزهاره...بل بأمطاره... هل سيثقب معطفك يا أبي؟

وتخترق رصاصاتهم صدري! ... لا لا فرائحتك تمنعهم، أعرف أنّك لازلت حيّا، فأنت الذّاكرة الحيَّة التي لا تموت، بل تحيا لتعيش...

فتح عمر الرِّسالة وأخذ يرتشفُ منها حنين أمّه، ويستمع إلى أنين صوتها داخل الحروف، حين جرّها، حين كسرها، حين رفعها حين أضافوا لها ياء، فعلّلوها وتركوها تناشد الحروف الصمّاء لعلّها تنطق يوما وتجبر بخاطر الأمّ، وتعيد للّتاريخ مجده حين تحتضن عمر من جديد...

أي بنّي:

قرّة عيني...

يا مفتاح صبري...

هأنذا أكتب لك بمداد صبري...

لما رأيت عجز الطّبيب ويأسه،

بعدما رأيت غيمة الشّتاء لا تدوم...

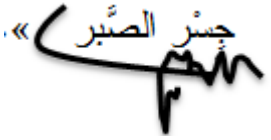
بعدما رأيت حرّ الصّيف ينصرف إلى حين....

بعدما رأيت أزهار الرّبيع تقطف في غير وقتها...

أوصيكَ...إذا عبرْتُ إلى محطتي الأخيرة وأنا على طاولة استئصال الورم وأنت بين أسوار السّجن أن تصبر فالورم موجود في الهواء الملوَّث الذي نستنشقه، فحينما تخرج من السّجن اغرس شجرة الزيتون، فإنّها ثابتة الجذور، مباركة واسقها بالإخلاص لحبّ هذا الوطن، واجعل عليها سياجا من روض القرآن، ولا تنس أمّك التي كانت قبلي والتي سوف تحتضنني، فكما أحببتني أحبّها وحافظ عليها، فإذا كنت أمّك فلا تنس أن تكتب على قبري: عابرة سبيل على جسر الوفاء.

كانت هذه الرّسالة بمثابة المطرقة على رأسي، كلّ حرف ترك أثرا، نقشت هذه الحروف مستقبلا جديدا وهدفا جديدا في ذهني، رغم تبلّل الورقة من دموعي، فقد غسلت كلّ ما في ذهني من أفكار لا تنبت زرعا، ثمّ لملتُ حزني وشردتُ بذهنِي.

هذه الزنزانة لا أعرفها، شعرتُ أنِيّ غريب في هذه الحياة التي تَختبِرُني، وتختبرُ صبرِي، في غيابك يا أمَّاه وجدت مخاض الانفصال أليم وعسير هضْمهُ، والولادة في غرفةِ مظلمةٍ عسيرة... عدتُ إلى رسالة "**ماريا**" لعلَّها تختلِف عن الرَّسائل السَّابقة، فتحتُهَا لأرتوِي من نبضِ حُرُوفها فوجدتُهَا كسابقاتِهَا، فأخذتُ أتأمَّلُها لعلَّ فيها لغزًا، فما وجدتهَا كتبَتْ غير جملة واحدة تُكرّرها كلّ مرَّة «للجِسرِ نُقطة بِداية..... ونُقطَة نِهايَة وأنَا نقطة من هذَا الجِسر.....توقيع:



ووجَدتُ داخل الرِّسالة زَهرة الآذريُون بعثتها لعلَّها تشفي جروحِي....

استمرَ الحالُ على حالهِ...

تعقَّدتْ الأمور وتأزَّمت، و"**عمر**" لا يزال قابع في زنزانتهِ ينتظرُ ما تسفرهُ هذه المهزلة التي وقعَ فيها، فأصبحَ بطلاً دون فيلم، بطلا دون مسرحية. بطلاً لمشهد يتكرَّرُ ويتعثَّر من حرف الرَّاء!

وأصبح ذلك الحارس صديقه المفضَّل في السِّجن، فقد كان يحضر لهُ الرَّسائل التي كانت تُؤنس وحشتهِ في زنزانتهِ، وبين الفينة والأخرى يُحدِّث "**عمر**" مصطفاه، فهل حدّثنا مصطفانا يومًا؟ وسألناهُ عمَّا فعلناهُ؟ وعمَّا نفعلهُ؟ وعمَّا يفعلُ بنَا؟ أم أنَّنا تركنا ذلك كلّه حتَّى نعبر الجسر عبره.

بعد شهور.....

أنهَى القاضِي والحاكمُ جولتهما عبر المدينة، والبحث عن الشَّاهد الحقيقي، فتلاشت كلّ الأعداد أمام سُؤال الحاكم، وما أصابَ الجواب الصَّحيح إلاّ شخص واحد وهو "**أسعد**"...

سمع "**عمر**" بهذه الحيلة التي دبَّرها القاضِي، وعاد للسُّؤال والجواب مع مُصطفاه؟؟؟؟

الحاكم يتجوَّل في المدينةِ من أجلي، يا فرحتي...أنَا محظوظ جدا.

أصبحت قضية "**عمر**" مِن قضايَا العصر....

ردَّ مصطفى على "**عمر**": أعرفُ شخصًا واحدا كان يتفقَّد أحوال الرَّعيَّة ليلاً ونهارا...

عمر: من هو؟

إنَّهُ عمر؟؟؟

كانت حيلة السِّجين "**عمر**" تحملُ رسالة للبشرية جمعاء، حينما أعطَى فكرة البحث عن الشَّاهد والسؤال عن المسكن، حتّى يتفقّد حاكم البلاد كيف تعيش الأسر، ما حالها وأحوالها؟ كي لأمِّهِ ويكشف حالها وحال أمثالها الذين يعانون في صمتٍ.

كانت هذه فِكْرَة "**عمر**" فلطالما كان كذلك، فهو الذي طلبَ من الحارس أن يبلِّغ هذه الرِّسالة إلى القاضي، لأنّ القاضي كان يؤمن ببراءة "**عمر**" والقاضي بدوره يبلّغ حاكم البلاد، وبهذه الفكرة يعيد "عمر السَّجين" ذِكريات زمن "**عمر الفاروق**" الذي كان يتفقّد أحوال الرَّعيَّة، ويكون قد أيقن في قرارة ذاتهِ رسالة أمِّهِ التي أنجبتهُ اتِّجاه أمِّه التي تحتويه، فالأمُّ هي الأرضُ التي نترعرع فيها.

عادت الأجواء إلى المحكمة النّظراتُ والوشوشةُ، والحاكم يتجوّلُ ويتفقَّدُ أحوال رعيَّته أو بالأحرى شعبهِ....

رُمِّم التِّمثال وعاد لأبهى حلَّة كهيئته الأولى، فالتّماثيل تراث بعض الأمم، فحتّى النّحت فنّ، فحتّى هذا التّمثال يُعاني، ما بال هذا الطِّين يناشد الرُّوح؟ بين الطين والرّوح نفخة أولى، من نفخها؟ إنّه من أوجدني في هذا الكون وأوْجدَك، روحك التي تروح وتجيء بين أضلعك، من أوجدها؟ تشعر بهذا الكلام يُخاطبك في بعضِ الأحيان.

روح أوجدها واجدها إنّه الواحد الأحد، إنّه الله الخالق.

محطةُ العبور الأخيرة

عمر يرافعُ الآن، يتكلَّم:

– سيِّدي القاضي أتسمحُ لي بالكلام.

–تفضَّل.

–لا زلنا في الجاهليّة، أم أنَّ التَّاريخ يُعيد ذكرياته عبر جسوري، لا زلنا نعبد اللات والعزى، تسألون الطين إذا تألّمْ؟ ولا تسألوني عن حالي وأحوالي حتَّى أجِيب.

–من الأولى الطينُ أم الرّوح؟

هل تنتصر للرُّوح أم للطِّين؟ وبين الطِّين والروح نفخة، من نفخها؟ إنَّهُ الخالق.

–وهل سنبحر في الرقصة المليويَّة لجلال الدِّين الرُّومي يا "عمر".

حين قال: لست طينا، لست ...أنا نفخة من رُوح....

–الرُّوح أولى يا "عمر".

ثمّ قال القاضي: أدلى بشهادتك يا "**أسعد**" فأنت الوحيد الذي أجاب عن سؤال القاضي الحاكم.

وأخيرا عادت الابتسامة تعانق "عمر" بعدما رأى صديقه "**أسعد**"، نعم إنَّها صداقة لم تمحها الأيَّام، ولم تلغِهَا المسافات بل تقوّيها النّائبات، هكذا هم الأصدقاء يعبرون الجسر مع بعضهم، أسعد هو الوحيد الذي لم يترك "**عمر**" لوحده لما كان في حالة نفسيَّة متدهورة، إنَّها الصَّداقة الحقيقيَّة، صداقة لا مصالح فيها، صداقة أخوة.

– سيّدي القاضي، أنا كنت ظلاً يمشي خلف "**عمر**" يُراقبهُ لأنّهُ في ذلك اليوم علم بمرضِ أمِّه فتدهورت حالتهُ لأنَّه لا يستطيع مساعدتها في العلاج.

أنا الوحيدُ الذي رأى من ضرب التِّمثال، لما سقط صديقي "**عمر**" مرَّ بالمكان رجل ظننته يمرُّ عليه مرور الكرام، أو يريد أن يشرب من ماء "العين" ذلك الماء العذب، لكنّه اغتنم فرصة إغماء "**عمر**" وأخذ يفتّش في ملابسهِ، يبحث عن شيء ما، في حين كنت أسارع الزَّمن إليه لأنِّي كنت أرقبه من بعيد، وما إن اقتربت من المكان حتَّى حمل صخرة وأراد ضربي بها، فأيقنتُ من ملابسه وكلامهِ غير المفهوم أنَّه مجنونٌ لأنّه لم يهرب عند رؤيتي، فاختبأت وراء التِّمثال، فرمى، ولكن من رمى؟

المجنون رمى الصَّخرة الصَّلبة عليَّ وإذا بها تصطدم بثديِّ تمثال المرأة، فلم أنتبه، لأنِّي كنت منشغلاً بصديقي "**عمر**".

ثمّ وجَّه كلامه للجميع وقال:

إنِّي أرى حقيقة لم يرها أحد، فصديقي "**عمر**" عنوانه الصّدق، فكيف بالصدق أن يتبرَّأ منه اليوم، إذا قال أنا لم أكسر التِّمثال، فهو لم يفعل ذلكَ، كلمته كالرَّصاص، إذا خرجت لا تعود، فزمن الكلمة الصّادقة معه لم يذهب؟ وهو من جعل القاضي يتفقّدُ أحوالكم عبر جملتهِ: «**لن أتكلَّم حتَّى يحضرَ عمر**»

سمع القاضي لشهادة "**أسعد**".

بعد مرور مدَّة من الوقت...

يتهيّأ القاضي لنطق الحكم الأخير الذي تغلق بعده القضيَّة إلى الأبد، لأنَّ الأدلَّة كلّها بحوزته، يتأهَّبُ الجميع للَّحظةِ الحاسمة، الكلُّ

على أعصابِهِ يعزفُ السِّنفونيَّة الأخيرة، هل هي سنفونيّة الحريّة الأبديّة، أم سنفونيّة السِّجن الأبدي؟

القاضي: أوّل دليل لتبرئة المتّهم "**عمر**" وهو:

بعدما وصلتنا تقارير الطَّبيب تبيّن أنَّهُ لم يكن في حالة نفسيّة جيّدة.

ثانيا: شهادة "**أسعد**".

ثالثا: بعدما علم القاضي الحاكم للبلاد أنَّ "**عمر**" كان سببًا في لقائه مع شعبِهِ، ومعرفة أحوالهم، أيقن أنَّ من يخدم بلاده لا يمكنه أنْ يؤذي أحدا حتَّى ولو كان طينًا، ومن خلالِ هذه الأدلَّة الكافيَّة فإنَّ المحكمة تعلنُ.....

- **براءة عمر...**

- برئ أنت يا عمرُ... هنيئًا لك.

-لقد حضر "عمر" الآن فلتتكلَّم يا "عمر"

وأخيرا نظر "**عمر**" إلى أعلى وأخذ يحمد الله على براءته، ومن شدّة فرحه جلس على الأرض باكيا، فرح الجميعُ ببراءة "**عمر**" فقد كان متأكّدا من براءتِهِ، فهو لا يؤذي نملة، تمت تبرئته لوجود أدّلة فاقت براءته، إلاّ أنَّ ذلك الدَّليل لم يشفِ غليل محامي التّمثال، فكان يعترض على الأدلّة من حين لآخر ممّا نزع فرحة "**عمر**" أثناء إعلان براءته، هذه هي الحياة لغز لا أحد يجد له حلاً...

وقبل أن يكمل القاضي كلامه دخل عليه شاهد آخر، وهو يلهثُ من كثرة الجري، يحمل شريطا مُسجَّلاً، يطلبُ الإذن بالدُّخُولِ، يقفُ أمام الجميع ويعرضُ شريط الفيديو للكلِّ، وإذا بهم ينظروا إلى الرَّجل الذي كسر التِّمثال في تلك اللّحظة، وفي نفس المنطقة، منطقة الثَّدي،

إنَّهُ رجل مرفوع عنه القلم... قصتهُ معروفة لدى أهلِ المدينة، فقد أمَّه لما كان صغيرا بورمٍ في الصَّدر، فلم يستطع العيش بدونها، فقدَ عقلهُ، فهو لما ضرب "**أسعد**" بالحجر لم يكن يقصد، لكنَّه لما رأى التِّمثال رمى حتَّى يُسكِّن ألما بداخلهِ لم يسكن بعد رحيل أمِّهِ، فأصبح يجوب الشَّوارع يبحث عنها في كلِّ النِّساء، يسألُ كلَّ النِّساء عن أمِّهِ.

حينها أدركنا أنَّ الكلّ يُعاني أوجاعا وآلاما، الطِّينُ يعاني بِما تفعله الرُّوح فيهِ والرُّوح تُعانِي ما يفعله الطّين بها، فلم نعرف من هو الظّالمُ ومن هو المظلوم بينهما؟ عجبا لنا ولهم من آلام لا نعرف مصدرها، وهنا يتيهُ السّؤال بين مدارج السّالكين، سنعبر عبر الرُّوح أم عبر الطِّين؟ تلك هي المتاهة الغارق فيها بعض البشرِ.

وبعدما تأكَّدُوا أنّهُ هو من كسر جزءًا من التِّمثال، حينها صرخ "عمر" صرخةً قوية أذابت كلّ الأوجاع:

-أمّاه، أمّاه، أمّاه، «**لقد حضر عمر**» وأسرع إليها وضمَّها ضمّة قويَّة، أخذ يقبّلها ويسمع نبض قلبها وهو يدقُّ ويدقّ...

همّ الجميع بالخروج، وهبت معهم نسائم العدالة الإلهيَّة....

وإذا بريحٍ قويَّةٍ تزورُهُم في غير موسِمِهَا، تعصفُ فتفتحُ النَّوافذ على مصراعيها، تمسَّك الجميع ببعضهِ البعض كجسد واحد في وقت المِحن، ظنَّ الجميع أنَّهُ وقت العبور على الجسر الأخير، اضطربت الأنفاس واختلجت، أخذت معها الثُّريَّا تهتزُّ وتحدث أصواتا لموسيقى ما ألفناها سابقا، يلتقي البلورُ مع البلور، يتناطحُ فتتناثر حبَّاتهُ الواحدة تيها الأخرى لتعلنَ أمرًا، وتأتي الرِّيح القويَّة فتسقطُ الثُّريا التي كانت تتوسَّط المحكمة، ويسقطُ ما تبقى من مُعاناة البشريَّة، إنَّها الثُّريَّا التي كانت تُزيّن

المكان، كان سقوطها سقوطًا قويّا أثار ضجَّة في القاعة، ظنَّ الجميعُ أنَّ الثُّريَا سقطت فوق التِّمثال الذي أثار ضجَّة أو فوق أحد الحُضورِ، فالتفتَ الجميع في ذهول ودهشة هنا وهناك، لم يجدوا إلاَّ حبَّات البِلورِ تناثرت في القاعة ولا أثر للتمثالِ، أخذَ الجميعُ يسألُ:

-أينَ التِّمثَالُ؟

-فقال القاضي: عاد الطِّينُ لمكانهِ الأوَّل، وعاد "**عمر**" لأمِّهِ وحضر" عمر" بيننا، حينَها نطق "عمر: وقال: «وربُّ عمر» فإذا كان للعدالة الأرضيَّةِ حضور بين الفينة والأخرى بين البشر، فيقهرُ الضَّعيفُ، وتُرفعُ راية الظَّالِمِ أحيانا، فإنَّ للعدالةِ الإلهيَّة حضور في كلِّ وقت وحين...

تفاجأ "**عمر**" حينها وهو يمسك يد أمِّه وهو يخبرهَا:

-حينما كانت قطع البلور تتبعثرُ أمامِي، أخذتْ قوايَ تتجمَّعُ وجُروحي تلتئمُ، عانقت أمِّي بقوّة وقبّلت رأسها وقلت لها: حتى العدالة الإلهيّة حاضرة معنا يا أمّاه.

حمدا لله وأخيرا رأيت الحقَّ يُنشد بعد مكابدة ومخاض عسير قلتُ: «**لَنْ أتكلَّم حتَّى يحضُرَ عُمَر**» والآن حضر عمر بعدله ظننتُ أنَّه لن يأتي، الآن حصحص الحقّ، سأعود إلى حياتي الطبيعيّة...

****

عاد "**عمر**" إلى حيّهِ وعائلتِهِ وإذا به يجد في الاستقبال بهجة حياته التي ظنَّ أنّهُ خسرها في أيّام بلائهِ، ها هو "**عمر**" يعبر جسور الصَّبر بأمانٍ ويُحقّق أمنيَّته التي تعلَّقت بالجسر لوقت طويل، إنَّها الحريَّة التي يناشدُها الجميع، إنّهَا الأمُّ حياته كلّها معه، لا يريد أن يعبر جسره إلاَّ وهي معهُ، هكذا هي الأمُّ وهكذا هو الابن.

يعود "عمر" إليها، نعم إنَّها خطيبته "ماريا" ما إن التقيتُ بها حتَّى ارتسمت على شفتاي أغنيّة الشَّوق إليها، وأخوها "أسعد" و"**أماني**" كذلك معهم، قد امتلأ المكان فرحة، وأخيرا أخذ "**أسعد**" من اسمه نصيبا من السَّعادة في حياته مع "**أماني**"، نسي "**عمر**" الخلاف الذي كان بينه وبين أخو خطيبته، فبعض الخلافات يمحوها الحزن الكبير أو الفرح الكبير... مثل القصائد، مثل الرِّوايات، مثل الرّسومات، كلّها تولد من رحم المعاناة.

اقترب "**أسعد**" من "**أماني**" فأخبرته أنّها أقنعت والديها ووافقوا على زواجها منه، أمسك يد أمِّهِ وطلب من "**أماني**" الذّهاب معهم وصعدوا جماعة إلى منزل "عمر"، أين ينتظرهم الفرح والسّعادة والسّكن.

ها هي الأيّام التي صنعت الحزن على الوجوه، تصنع المفاجآت والأفراح في قلبي "عمر" و"أسعد"، وفي قلب أعمارٍ كثيرة، "عمر" لم يكن واحدا و"أسعد" لم يكن واحدا بل كانا شباب قرية، شباب مدينة، شباب دولة، شباب أمّة... وتستمرُّ الحياة، فهي لا تتوقَّف عند الحزن، ولا عند الفرح بل تستمر ليعبر كلّ شخصٍ جسرهُ بصبره وعلمه وإخلاصه وحبِّهِ.

مرَّت أيَّام على قصَّة "**عمر**" لكنَّهُ أراد أن يسترجعَ بسمته وفرحته، ولما كانَ أصدقاؤه على علمٍ بحالته وظروفه القاسيّة التي مرّ بها، دعوه إلى حفلة جعلوها في أحد البساتين الخضراء، في مكان لا ضجيج فيه، وفي طريقهم مرّوا على نفس المكان الذي أغميّ عليه فيه، ليشربوا من "**منبع عين الفوَّارة**" ويتذوّقُوا ماءها العذب، فرأى تمثال المرأة منتصبًا كهيئته الأولى، فنظر إليها وأخذ يُخاطب مصطفاه: هذه هي معادن النّاس، هناك من يعشقُ الرُّوح وهناك من يعشق الطِّين، الكلُّ حرّ في طريقة عبوره وفي عشْقِهِ.

لكن؛ مَا ذنبُ الأنثى تُعَاني مُنذُ الأزل؟ وَأدُوهَا في جاهليَّتِهم، ثمَّ حرَّروها، ثمّ عرَضُوها سِلْعةً في تحضُّرهم المزعوم، ماذا لو تتركوها تعبر جِسْرهَا بحيائِهَا؟

واصلُوا المسيرَ إلى المكانِ المنشودِ، ولما رأى "**عمر**" ذلك المكان وقفَ وسطهُ وأخذَ يستنشقُ الهواءَ النَّقي ويملأ رئتيه ثمّ يرمي به خارجا، ويصرخ بأعلى صوته:

– يا الله، يا الله، يا الله.

وصدى الصَّوت القويّ يعود إلينا، كأنَّه كان يحمل هموم البشرية جمعاء، والظلم والقهر، وأخذ يخرجُ الظلم الذي ملأ قلبه، اقترب من أصدقائه وهو يُعانقهم بالأحضان، رأى ما لذّ وطاب من المأكولات، وكعكة كبيرة من الحلوى عليها شموع، فسألهم:

– عيد ميلاد مَن؟

فضحكُوا وقالوا جماعةً بصوتٍ مرتفعٍ: إنَّهُ عيد ميلادك يا "**عمر**".

عمر: متى وُلدت؟ فكلُّ الأعمار لها ميلاد؟ للحريّة ميلاد، لكن للجسور نهاية كُتبتْ قبل أنْ نولد، وبين الميلاد والرَّحيل جسر، بين الميلاد والوداع جسرٌ سيمتدُّ بيننا ليبلغ الآفاق، لأنّنا سننتظركم في بداية الجسر لنعبر كلّنا، لقد ذكرتموني بمولدي وكنت قد نسيتُ ذلك وما أنسانيه إلاَّ الهموم التي اعتلتني هذه السَّنة.

السَّارقُ المحبوب

واصلَ الأصدقاءُ المرحَ مع بعضهم البعض إلى أن استوقفهم عابر سبيل، رجل كبير في السنِّ لحيته بيضاء كأنّها ثلج، مُبتسم المحيّا، يتَّكئ على عكَّازه، إنَّها عصاه له فيها مآرب كثيرة، تذكّرهُ "**عمر**":

-إنّهُ هو عابر السَّبيل الذي رأيتهُ في الهاتف.

إنّهُ ينظر إلينا ونحن نمرح مسرورين، ونسرح هنا وهناك، نعيد للطُّفولة مجدها، فتقدّم نحونا بمشية متثاقلة متزنة الخطوات وحيّانا:

-السَّلام عليكم أيُّها الشَّبابُ.

-السّلام ورحمة الله يا شيخنا.

ثمّ قال للأوّل:

-أي بنيّ أرى سعادةً في وجوهكُم، هلا أشركتموني فرحتكُم؟

-أحققتم نجاحا في دينكم أو دنياكم؟

-نحتفل بعيد الميلاد فقط....

عيد ميلاد من؟ عيدُ ميلادِ الحقّ؟ أم عيد ميلاد البشرية التي تعاني مخاضا لولادة قيصرية... وا أسفي على حالكُم...

لقد مرّ بجوارِكُم سارق ألم ترَوْهُ؟

ردَّ الجميع بكلِّ ثقةٍ:

- لا! لم يمر أيّ سارقٍ من هُنَا، فنحن لوحدنا في هذا البستان، فما سُرق منَّا قهرًا استرجعناه صبرا وعبرنا جسرنا إلى هذه المحطَّة ولا زلنا نعلِّقُ الأمنيات.

نظر إليهم عابر السّبيل وقال:

يحصدُ من بساتينكم ولا يتركُ أثرا، يسرقُ من أعماركم وأنتم تستقبلونَهُ بكلِّ فرح وسرور، هل تحتفلون بعام يضاف إلى أعماركم، أم بعامٍ مضى ولا يُمكنهُ العودة؟

-عجبًا لكُم!!! تدخلونَهُ بيوتكم، وتُقيمون لهُ الولائم وتقولون: إنَّه عيد الميلاد، حقا إنَّهُ سارق محبوب!!! تعبُرونَ جُسوركم ومعكم هذا السَّارقُ المحبوب، فاتركوا بصمة في كلِّ جسر، وانثرا عِطركم عبرهُ حتَّى يستنشقهُ من يعبُرُ بعدكم....

حينها أدركت رسالة أخرى للبشرية تطفو فوق السَّطح تنتظر من ينتشلها، فعُدت مسرعا إلى أمّي أناشدُ أمنيي التي علَّقتها فوق الجسر، وطلبتُ منها أن نُعيد الفحوصات الطّبيّة، ونعالج ما بقي من الثَّدي قبل أن يستأصلوه، فخاطبتني بكلمات لو استطعت لكتبتها بماء الذَّهب:

-سأشفى يا ولدِي ويَخْضَرُّ عُشبي وتُونعُ أزهاري حين يسود العدل أقطاري، حين تعزفون أنشودة السَّلام على أوتاري، سأشفى يا ولدي حين يعود ذاك الزَّمان المعطَّر زمان محمَّدٍ وعمر.

فقلت لها: يا أمّاه لا زلنا نتساءلُ ونبقى نتساءل، متى سيأتي...؟

فقالت لن أخاطبك أنت، فأنت دوما تقاطعني، بل أخاطب "عمر" الذي سيجيب عن سؤالكم، عمر الذي تفقّد أحوالكم، وجمع شملكم، وزرع بسمة الأمل في البراءة والشّاب والعجوز وسوف أسأله عن زمنه؟ عن وعده؟ أسأل عنه البشرية التي تعاني في صمت في كلّ أرجاء المعمورة، إلى متى تبقى البشرية تعاني؟

-لا تقلقي يا أمّي، تفاءلي خيرا، فاللّيلُ مهما طالَ فإنَّ الصّبح قريب، سأحمل أمنيتك في يميني وأعلّقها فوق الجسر ولن أتركها حتّى تتحقّق، حتّى الحرية في كلّ الأقطار والعدل يصافح الأخيار.

ذهبت إلى الجسر وكتبت أمنيتي على يدي اليمين، وصافحت أصدقائي فإذا المحبّة تنتشر والوفاء والإخلاص، ألم أقل لكم:

- حياتنا محطَّات تستوقفنا، وستأتي محطّتنا الأخيرة، ألم أقل لكم أنَّ الهموم والمشاكل التي تمرّ علينا تشبِهُ الجسور وسوف نجتازها ونعبرها باليقين، فاكتبوا أمنيتكم لترى النُّور بصبرهم ووفائكم وإخلاصكم.

فَمَا نحنُ وأنتم إلاَّ عَابِرُو سَبيل على جُسُورِ المحبَّةِ والوفَاءِ والإخلاصِ سنلتقِي وسنكتبُ أمنيَّات جَديدَة فوقَ الجِسْر.

خيرة بوخاري

سيدي بلعباس 2020

تَسْرِدُ هذهِ الرِّوَايَة أحدَاثًا مِن واقعنا الذي يستفزُّنا كلّ حين أثناءَ فَرحنَا وأثناءَ حُزننَا، فلاَ أحدَ منَّا يختارُ حياتهُ فتجدنا حينًا نعبرُهَا عبر جُسورِ الصَّبر وحِينًا عبر جُسُور القدرِ، نُحاوِلُ أن نعبرَ مع شخصيَّةِ "عمر" الذي ينتقلُ من جسرٍ إلى جسر حاملاً رسالةً للبشريَّةِ، عبر أسئلةٍ فلسفيَّةٍ تقتاتُ منَ الوجودِ، بدءًا بجسورِ ذكرياتهِ مع صديقهِ "أسعد" الذِي قال يومًا: «أمنيَاتكُم كُلّهَا تحقَّقتْ إلاَّ أمنِيَتِي بقيَت حبيسَة الورقِ» إلى أن فاجأهُ مرض أمِّهِ يتهاوَى العالمُ أمامهُ، لكنَّه يعبرُ جسورَهُ إلى أن يصلَ إلى محطّةٍ غيَّرت مجرَى التَّاريخ عندَهُ، محطّة استوقفت الكبير والصَّغير في بلدهِ، الجاهل والمُثقَّف، محطّة وضعتهُ في كفَّة الميزان بين متاهةِ أسئلة العارفينَ: أتنتصرُ الرُّوح أم الطِّينُ؟ محطّة جعلتهُ يجتازُ كلَّ الجُسُور عبر عِبارتهِ الشَّهِيرَة: «لَنْ أتكلَّمَ حتَّى يَحْضُرَ عُمَر!»، فكلّ صفحةٍ في هذهِ الرِّواية تأخذُ مكانهَا بينَ يدي أمٍّ مقهورة، وطفل مُتشرِّد، وشاب ضائع، وفتاة تُناشدُ أحلامهَا ومظلوم بين أسوار الظُّلم، وما تبقى من وُريقات تناشد التُّربة الحمراء وفاءً، تُناجي البشَرية الهاربة، إلى أن رُحت ألملمُ بقيَّة الأمنيات في وصيَّة تتركهَا الأمّ لابنها لتعبرَ جسرَهَا بسلام.. فكلّ الأمُورِ التي تحدثُ لَنَا تُشبهُ الجُسُور، لهَا نقطة انطلاقٍ ونقطة وصول، لكِنْ هل الجميع يَصل؟ هل الجميعُ سيَعْبُرُ بِسَلامٍ؟

خيرة بوخاري : كاتبة جزائرية من مدينة سيدي بلعباس، حائزة على شهادة الدكتوراه في الأدب العربي. صدرت لها العديد من الأعمال من بينها :

-فاكهة السماء (مجموعة قصصية)

- حواء تغسل قلبي (ومضات شعرية) (حائزة على جائزة الومضة الشعرية الأولى في ملتقى ابن النيل الأدبي في المعرض الدولي للقاهرة.)

ISBN : 978-9931-06-081-9



khayaleditions@gmail.com